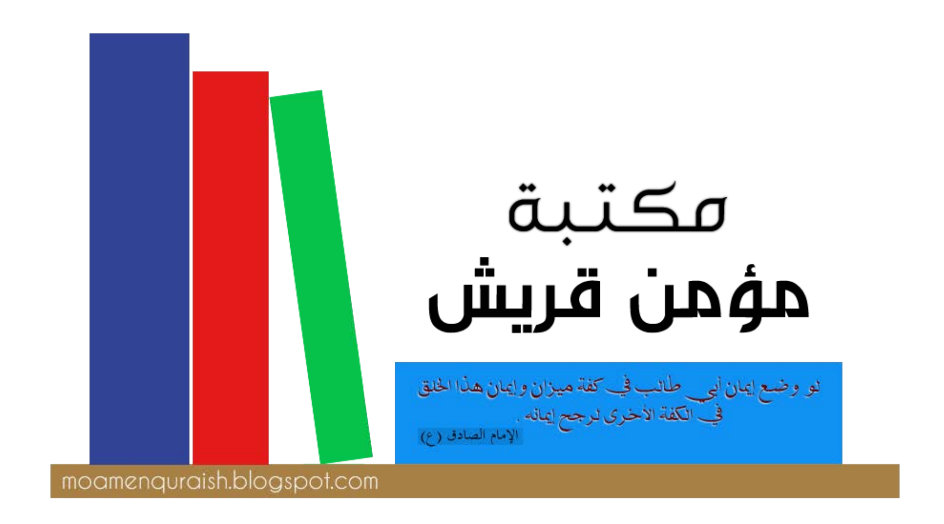
أنوار الولاية

مناقشة للشبهات المثارة حول دعاء الندبة

الشيخ لطف الله الصافي

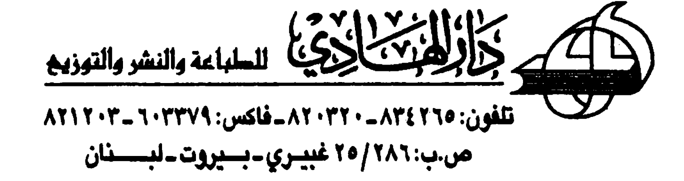



مكتبة
مؤمن قريش
لو وضع إيمان أبي طالب في كفة ميزان وإيمان هذا الخلق في الكفة الأخرى لرجح إيمانه.
الإمام الصادق (ع)
moamenquraish.blogspot.com


أنوار الولاية
مناقشة للشبهات المثارة
حول دعاء الندبة

الطَبعَة الأولى

١٤١٩هـ - ١٩٩٨م



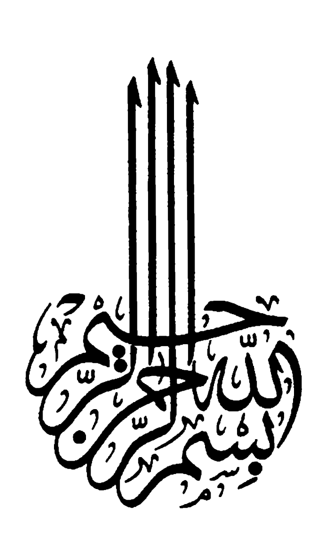
تلفون: ٨٣٤٢٦٥ ـ ٨٢٠٣٢٠ ـ فاكس: ٦٠٣٣٧٩ ـ ٨٢١٢٠٣
ص.ب: ٢٨٦/٢٥ غبيري ـ بيروت ـ لبنان

أنوار الولاية

مناقشة للشبهات المثارة
حول دعاء الندبة

الشيخ لطف الله الصافي




بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة المترجم:

بسم الله الرحمٰن الرحيم

الحمد لله والصلاة علىٰ رسوله وآله الهداة ولا سيما إمام عصرنا وملاذنا الحجة بن الحسن أرواحنا فداه.

تؤكد الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة علىٰ أهمية دور الحب الحق في المسيرة التكاملية الطوعية للإنسان المؤمن وسيره التخلقي بأخلاق الله مقدمة للوصول إلى معرفته الحقة؛ ويصل التأكيد علىٰ هذا الحب الحق درجة أن الإمام الباقر ـ عليه السلام ـ يعتبره أساس الدين حيث يجيب من سأله عنه بقوله «وهل الدينُ إلا الحب» كما أن الآيات الكريمة تصرح بأن ثمرة طاعة الله ورسوله هي محبة الله.

والعبادة الحقة التي هي الغاية من خلق الجن والإنس ـ كما يصرح بذلك القرآن الكريم، لا تصل إلىٰ صورتها المطلوبة ما لم ترتكز علىٰ الحب كما يصرح بذلك مولىٰ المؤمنين أمير المؤمنين عليه السلام في وصفه للعابد الحق بأنه الذي «عشق العبادة فعانقها» ومفهومٌ أن العشق هنا للعبادة باعتبارها وسيلة التقرب واللقاء والاتصال بالمعبود وهو حبيب قلوب الصادقين وإلٰه العالمين كما ورد في الدعاء العلوي الشهير المعروف بدعاء كميل نسبةً إلىٰ راويه كميل بن زياد.

وترجع أهمية دور الحب في الدين والسير التكاملي للإنسان نحو الله

إلىٰ كونه يمثل في الحقيقة وقود هذا السير وبدونه تخلو العبادات من أثرها التكاملي المطلوب وتفقد حرارته الدافعة إلىٰ المزيد من التعرف علىٰ الحبيب وعدم الاكتفاء والقناعة بالمعرفة الأولية التي أثمرت الحب الأولي والعبادة الأولية، بل إن هذا الحب يولّد طاقةً تدفع إلىٰ المزيد من المعرفة وبالتالي إلىٰ مستويات أعلىٰ من الحب للمعبود ومراتب أعمق للعبادة.

واستناداً إلىٰ هذه الأهمية أمر الله تعالىٰ نبيه بأن يجعل «المودة في القربىٰ» هو أجره الوحيد علىٰ إبلاغ الرسالة، لأن هذه المودة هي بوابة التمسك بأهل بيت العصمة عليهم السلام وبالتالي لزوم سفينة النجاة ومصابيح الهدىٰ وعدلاء القرآن حسب نص حديث الثقلين الشهير ومودتهم وحبهم هو حب في الله فهم أولياؤه والقادة إليه والأدلاء عليه كما تفصل الحديث عن ذلك الزيارة المعتبرة سنداً ومتناً والمعروفة بالزيارة الجامعة الكبيرة التي أوصىٰ إمام العصر الحجة بن الحسن أرواحنا فداه بالمواظبة على تلاوتها كما ورد في قصة السيد الرشتي التي ينقلها الشيخ الزاهد عباس القمي في كتابه مفاتيح الجنان عن شيخه العلامة النوري في كتاب النجم الثاقب.

من هنا اهتمت الكثير من التكاليف الشرعية بترسيخ هذه المودة لأولياء الله المعصومين عليهم السلام وأتباعهم الذين يكون حبهم حباً لهم ـ عليهم السلام ـ وبالتالي حباً للرسول وحباً لله، لكي يكون هذا الحب الحق والمقدس منطلقاً لأتباعهم والسعي لتحقيق أهدافهم السامية علىٰ كلا الصعيدين داخل الإنسان وانتصاره علىٰ النفس الأمارة بالسوء، وخارجه في الانتصار علىٰ الطواغيت والظلمة وإقامة حاكمية قيم العدالة الإلٰهية. ومن التكاليف الشرعية الهادفة إلىٰ تحقيق هذه الغاية المقدسة هي زياراتهم في حياتهم في هذه الدنيا وبعدها والدعاء لهم والصلاة عليهم ـ عليهم أفضل الصلاة والسلام ـ ونظائر ذلك من المندوبات التي وردت بشأنها الكثير من التأكيدات الشرعية.

ومن هذه الممارسات الشرعية هو الدعاء المعروف بدعاء الندبة الذي يشتمل علىٰ زيارة وسلام ومخاطبة لإمام العصر مصلح الكل الحجة بن

الحسن ـ عليه الصلاة والسلام وعجل الله تعالىٰ فرجه الشريف ـ الوارد عنهم عليهم السلام؛ فأحد الأبعاد الرئيسية في هذا الدعاء الجليل هو ترسيخ تلك المودة التي أمر بها القرآن الكريم وهذا الحب الذي يمثل القوة الدافعة لاتباع منهج أهل بيت العصمة والطهارة الرافض لكافة الانحرافات وأشكال الظلم الشيطاني الداخلي والخارجي؛ كما أنه في نفس الوقت يعبر عن هذا الحب وعن الالتزام بالأهداف التحررية الإنقاذية لكل العالم التي يتولىٰ إمام العصر قيادة منتظريه الحقيقيين في العمل لتحقيقها في كل آنٍ وفي كل عصرٍ في مسيرةٍ تكاملية لا يؤثر عليها امتلاء الأرض ظلماً وجوراً، بل العمل مستمر حتىٰ تتحقق التوطئة الانتظارية المطلوبة ويأذن الله بظهوره لتبدأ المرحلة الأخيرة التي تتجسد فيها تلك الأهداف كاملة.

وعليه، فإن هذا البعد الثوري السياسي التغييري هو بعدٌ أساسيٌ أيضاً في دعاء الندبة مثلما أن بعد ترسيخ الحب والاتباع الحق لإمام الزمان الذي مَن مات ولم يعرفه فقد مات ميتة جاهلية هو أيضاً بعدٌ أساسيٌ في هذا الدعاء، فمن تحقق فيه بعد الحب والاتباع والانتظار الحق تحقق فيه ذاك البعد التغييري الثوري الفردي والاجتماعي الممهد للظهور المهدوي المبارك علىٰ صعيد داخله وعلىٰ صعيد الخارج الاجتماعي وإلا ففي تحقق البعد الأول نقصان ولا شك.

ولعل هذه الشمولية التكاملية في الأبعاد التي يشتمل عليها دعاء الندبة والأهداف التغييرية التي يسعىٰ إلى إيجادها من خلال إيجاد روح التغيير والرفض لأصول الظلم وأعداء الله والعمل للأهداف المهدوية، هي المستهدفة في الاستحباب الوارد لتلاوة هذا الدعاء في الأعياد الإسلامية الأربعة (الجمعة والفطر والأضحىٰ والغدير) لما توجده هذه الأعياد من حالة اجتماعية خاصة في مراسم صلواتها أو مراسم الاحتفال بها؛ فمثلما يُراد من هذه الاجتماعات أن تكون منطلقاً لدراسة أوضاع المسلمين ومشاكلهم وجعلهم يلتفون حول محور الاعتصام بحبل الله باعتباره سبيل التحرر والخلاص ومنطلق التقدم والرقي، كذلك فإن تلاوة هذا الدعاء في أيام هذه الاجتماعات تمدُّ المسلمين

بالطاقة والوقود المقدس للتحرر والتقدم ومجابهة الأوضاع الفاسدة.

وانطلاقاً من هذه النظرة جاء تأسيس مجالس دعاء الندبة التي أصبحت ظاهرة مميزة في العديد من المجتمعات الشيعية وخاصة في إيران، حيث تشهد هذه المجالس حضوراً واسعاً من مختلف الفئات والأعمار والمستويات الثقافية التي يجمعها حب إمام زمانها ومودة العترة الطاهرة، لتشكل بذلك أرضية إلٓهية توحيدية نادرة للتعريف بمظلومية الإمامة المعصومة والقضية المهدوية وتعميق الروح المهدوية وحفظ روح الرفض للظلم والجور والفساد متأججةً في الوجدان الشيعي، ولعل لهذا السبب توجهت سهام الأعداء لهذه المجالس ودعاء الندبة فأثيرت ضده العديد من الشبهات، ونلاحظ هنا تزامن إثارة هذه الشبهات مع تنامي بوادر الصحوة الإسلامية ومُنذ ظهورها بوضوح أكبر قبل ثلاثة عقود، الأمر الذي يشير إلىٰ أن الهدف منها محاربة الروح التغييرية الثورية لهذا الدعاء ومحاربة مجالسه العامة التي تروج وتنشر هذه الروح التي يخشاها الظالمون.

وبالطبع فإن هناك البعض من المتأثرين بالشبهات المثارة، مدفوعين ببعض الممارسات الخاطئة أو المشبوهة في بعض مراسم مجالس هذا الدعاء والتي تسعىٰ إلىٰ تحريف مقصوده وتحويله إلىٰ عامل لنشر وتكريس المفهوم المحرف لانتظار المهدي الثائر ـ أرواحنا فداه ـ وهو المفهوم السلبي الداعي إلىٰ القعود عن العمل الإسلامي تحت دعوىٰ أن لا فائدة منهم فالإصلاح هو مسؤولية الإمام المهدي ـ عجل الله تعالىٰ فرجه ـ وأن تكليفنا هو الدعاء له فقط بل ومنع ما من شأنه الحد من الظلم والفساد لكي ينتشر الفساد والجور ونعجل بذلك في ظهوره ـ عليه السلام ـ!!

فبالنسبة لهذه الطائفة من المتأثرين بهذه الشبهات نقول: إن من غير الصحيح التأثر بها وإنكار أصل الدعاء عن غير علم بل المطلوب بدلاً من ذلك هو التصحيح والعمل لمواجهة الممارسات غير الصحيحة في مجالس هذا الدعاء والسعي لإقامة مراسم دعاء الندبة بالصورة الشرعية الفضلىٰ التي تحقق أهدافه في تعميق الحب والاتباع لإمام الزمان عجل الله تعالىٰ فرجه

الشريف ـ وبعث الروح الثورية التغييرية والجهادية التي بها يتحقق المفهوم الصحيح لانتظاره من خلال التمهيد لظهوره المقدس والتعجيل عملياً لذلك إضافةً إلىٰ الدعاء.

وإلىٰ هؤلاء أيضاً ولكل عشاق المهدي وأنصاره نقدم الترجمة العربية لهذا الكتاب الذي يناقش بالأدلة والبراهين الشبهات المثارة ضد دعاء الندبة ويبين حقيقة الأمر بشأنها سائلين الله أن يهدينا جميعاً لمعرفة إمام زماننا ولسبيل منتظريه الحقيقيين وأنصاره العاملين ويرزقنا الشهادة بين يديه وفي سبيل أهدافه الإلٰهية المقدسة إنه ولي النعم.

٢١/ محرم الحرام/ ١٤١٤

عرفان محمود

بسم اللّه الرحمن الرحيم
الحمد للّه رب العالمين وصلىٰ اللّه على محمد نبيه وآله وسلّم تسليما

الدعاء

﴿وقال ربكم ادعوني أستجب لكم. . .﴾[1]

التوجه إلىٰ الدعاء والارتباط بعالم الغيب ومبدأ الخلق والقوة الإلّهية الأزلية، هو أحد النوازع الإنسانية الأصيلة والحقيقية المستندة إلىٰ جذور فطرية، فالحاجة للدعاء موجودةٌ في فطرة الإنسان وهي تظهر وتتضح أكثر في حالات الاضطرار وانقطاع الأمل من الأسباب المتعارفة والوسائل والقوىٰ المادية حيث يتوجه الإنسان طواعية بروحه وقلبه إلىٰ الله الكريم القادر ويستمد منه العون والمدد.

والدعاء هو أفضل غذاء للروح ومنشط للنفس ولا ترقىٰ إلىٰ تأثيره في الاستجابة لطموح الروح الإنسانية الواسعة أيةُ وسيلة أخرىٰ. فهو سلاح المؤمن، يزيل المتاعب ويخفف وطأة المصائب والآلام وتنير أنوارُهُ الضمائر وتزيل صدأ القلوب.

---

(١) سورة غافر/ الآية ٦٠.

وأي إحساسٍ خير من إحساس الحاجة للدعاء وأنفع في تكامل النفس؟! فالداعي يدرك ضعفه وفقره وحاجته ـ وهذا إدراك تمام هوية كل ممكن مخلوق ـ فيلجأ إلىٰ القدرة والقوة الغنية المطلقة لرب العالمين ويرتبط بالمصدر الحقيقي لكل قوةٍ ولكل غنى ولكل كمال فيجبر بها ضعفه وفقره وحاجته ويتحرك إلىٰ الأمام بأفضل ما يمكن بخطوات مطمئنة واثقة.

كيف يتغلب الإنسان علىٰ الحوادث وإلىٰ مَن يلجأ في الصعاب والشدائد لولا الدعاء والتوجه إلىٰ الله؟! لقد ثبتت ـ بالبرهان ـ الفوائد النفسية والتربوية والروحية للدعاء وتأثيره حتىٰ في التطور الفكري ومعالجة الأمراض النفسية. وإنسان عصر الفضاء أحوج لهذه الفوائد من أسلافه.

ولأن الدعاء حاجة فطرية ونزوع كل إنسان له أمرٌ ثابت لذا فتقدم العلوم والصناعة لم يغنِ الإنسان عنه بل أثبت ضرورته لحياة الإنسان، والتوجه إليه في ازدياد اليوم في المجتمعات التي توصف بالمتقدمة.

والإنسان محتاج في أسلوب الدعاء ـ كما في المجالات الأخرىٰ ـ إلىٰ الهداية الصحيحة المعقولة لكي لا يتحول هذا النزوع الفطري والضروري للروح إلىٰ عامل لانحرافه وسقوطه أو إلىٰ تحوله إلىٰ أداةٍ بيد النفعيين والمنحرفين؛ فمظاهر الدعاء في الجاهلية وبين الأقوام قبل الإسلام والشعوب غير المسلمة المعاصرة كانت عوامل مساعدة للانحطاط الفكري والأخلاقي وعبادة الخرافات[1]، وفي زيادة الفساد وترويج الأعمال الوحشية وغير

---

(١) يخطىء الذين يتصورون أن الشعوب التي تُسمىٰ بالمتقدمة في عصرنا قد تحررت من الخرافات والعقائد الكاشفة عن عدم نضوج وضعف القوىٰ الفكرية، فهذه الشعوب ومع كل ادعاءاتها مبتلية بالخرافات وإلىٰ درجةٍ عجيبة، فالاحصائيات التي نقرأها أحياناً في الصحف توضح أن هؤلاء المتسلطين علىٰ الشعوب المحرومة خاضعون وإلىٰ درجةٍ كبيرة لسيطرةِ الخرافات والأساليب المذمومة التي إذا ظهر واحد بالمائة منها في إحدىٰ الشعوب الشرقية لسلطوا على رأسه من كل جانب سياط الاتهام بالرجعية والتخلف.

=

الإنسانية. ولكن عندما أشرقت شمس الإسلام في العالم مزقت حجب الخرافات وشملت ثورته العظيمة ـ كما نعلم ـ كافة شؤون الحياة الاجتماعية والمعنوية والأخلاقية والفكرية والسياسية وأزالت الظلمات في كافة المجالات ومنها بالطبع مجال الدعاء الذي شملته الثورة الإسلامية في الدرجة الأولىٰ بصورةٍ مباشرة أو غير مباشرة، فتمت صياغة منهجه بما يتناسب مع الإنسان الحر والتقدمي الواعي وبما يجعله مربياً لجميع المستويات مفيداً لها ومدرسةً تعليمية تربوية.

لقد جاء الإسلام بمناهج الدعاء التحررية وقام النبي الأكرم ـ صلَّىٰ اللَّهُ عليهِ وآلهِ ـ وأوصياؤه عليهم السلام بتعليمها للمسلمين وضمنوها الكثير من الأهداف الإسلامية السامية وقدموها للمجتمع، وحري أن تعتبر أدعيتهم ـ سلام الله عليهم ـ إحدىٰ الذخائر العلمية والتربوية للإسلام فقد عُرضت في الأدعية الواردة عن أهل بيت الرسالة عليهم السلام قضايا التوحيد والإلٰهيات والنبوة ونظام الحكومة والأخلاق والحقوق المدنية ومختلف الأحكام والآداب، ويقينٌ أن مدرسة أدعية أهل البيت هي إحدىٰ المدارس الراقية ذات الأثر العظيم في التطور الفكري والسمو الروحي والتقدم الاجتماعي للمسلمين إذا تحققت الاستفادة منها، في حين أن الشخصية الإسلامية للمسلم لن تكتمل ما لم يستفد من هذه المدرسة التي تفتح أبوابها علىٰ مدىٰ

= فمثلاً يسود حالياً وباتساع كبير بين شعوب البلدان الغربية الاعتقاد بالمتنبئين وقراء البخت والفأل وهذا ما يروجه التيار التغريبي في بعض صحفنا أيضاً، وفي فرنسا يتم كل عام إنفاق أكثر من ثلثمائة مليار فرنك علىٰ قراء البخت والفوالين طبق إحصائية رسمية (راجع صحيفة إطلاعات الإيرانية العدد ١١٤٦٠) كما أن مختلف مجالات الحياة في المجتمعات الغربية مشحونة بالتناقضات وضعف القوىٰ المنطقية وكثرة الأعمال المخالفة للشرف والفضيلة (راجعوا مثلاً المقال الذي نشرته صحيفة إطلاعات العدد ١٣٨٢٤ ص ٦ عن الأوضاع في قلب أميركا المتقدمة!! لتعرفوا عمق انحطاط القوىٰ الفكرية والمعنوية للشعوب التي توصف بالمتقدمة وبأنها فوق سائر بني الإنسان).

اليوم والليلة أمام الجميع وترفع دروسها المتكررة الإنسان علىٰ الدوام الدرجة بعد الأخرىٰ.

نحن هنا لا نريد توضيح فلسفة الدعاء وأسراره وقيمة الأدعية المأثورة عن أهل البيت عليهم السلام ـ كالواردة في الصحيفة السجادية ـ وتأثير دور الدعاء في بناء الشخصية ولا الاستشهاد بنماذج من عبارات الأدعية ومضامينها السامية في كل موضوع[1] ليتضح سعة غنىٰ ديننا في كل مجال وعظمة الوسائل القيمة للسعادة والتوفيق التي أنعم بها علينا ونحن معرضون عن الاستفادة منها، فهذا الموضوع يحتاج إلىٰ تصنيف كتاب مستقل ولكننا أردنا فقط التنبيه إلىٰ أن الهداية الإسلامية شملت بمقدار وافٍ وكافٍ موضوع الدعاء واستجابت لحاجتنا الفطرية له بصورةٍ صحيحة وعرضت علينا سبل الحصول علىٰ خيرة المنافع من الدعاء.

دعاء الندبة

وهو من الأدعية المشهورة وقد اتخذ الكثير من المؤمنين ومشتاقي ومنتظري ظهور دولةِ الحق وحكومة العدالة الإسلامية العالمية، ومحبي قطب الولاية حضرة بقية الله، ناموس الدهر وولي العصر مولانا وسيدنا صاحب الزمان ـ أرواح العالمين له الفداء ـ، اتخذوا تلاوته شعاراً لهم يجددون به العهد في مناسبات وأوقات محددة مع ذاك القائد للأبرار وسيد الأخيار والأحرار، فيقيمون مجالس حماسية روحانية لتلاوة هذا الدعاء الشريف.

وقد طلب بعض السادة الأعزاء من هذا الحقير توضيحات بشأن هذا الدعاء ورأيت أن رفض ما طلبوا يعد عملاً قبيحاً فعمدت إلىٰ الإجابة

---

(١) تم تدوين مباحث بهذا الصدد علىٰ نحو الاختصار في كتاب «شهر رمضان المبارك أسمىٰ مدرسة للتربية والأخلاق» من مصنفات المؤلف بالفارسية.

على نحو الاختصار علىٰ أسئلتهم وأسئلة الآخرين علىٰ الرغم من كثرةِ الأشغال وضعف الحال، والأمل أن تحظىٰ بقبولِ خدام حضرة ولي الزمان وقطب العصر ـ عجل الله تعالىٰ فرجه ـ.

الإمام الصادق (ع) يندب الإمام المهدي (ع)

لا يخفىٰ أن ندبة الإمام المهدي ـ عليه السلام ـ وإبداء الشوق للقائِهِ والبكاء والاغتمام لفراقه والحرمان من فيض حضوره والدعاء لتعجيل فرجه وظهوره وذكر فضائله ومناقبه وإنجازاته وأعماله الثورية والإصلاحية، وإظهار الأسف من الأوضاع المتردية وتسلط حكومات الباطل والدكتاتورية وشيوع السياسات الظالمة، كل ذلك هو سنة حسنة واظب عليها شيعة أهل البيت عليهم السلام واتخذوها شعاراً لهم، وهي سنةٌ قائمة إلىٰ ظهور دولة الحق وإقامة حكومة الإسلام العالية وتحرر وخلاص كافة بني الإنسان، وهذا الشعار بيان معلنٌ للمطالب العادلةِ الساميةِ والأهداف التقدمية والتحررية التي يدعو لها الإسلام.

كما أن هذه السنة الحسنة هي أسلوب في إنكار المنكر وإدانة الباطل وذم الظلم والجور والفساد والمعاصي ومناصرة الحق والعدالة، وهي علامة حياة المشاعر الإنسانية لأتباع مدرسة القرآن والتشيع الجهادية إذ إن «مَن ترك إنكار المنكر بقلبه ويده ولسانه فهو ميت بين الأحياء»[1].

وهذه الندبة ـ السنة الحسنة ـ تعلمها الشيعة من أئمتهم الذين يتأسون بعلمهم ويرون اتباع أقوالهم وأفعالهم واجب كل مسلم طبقاً لما ورد في حديث الثقلين المتواتر والأحاديث الصحيحة الأخرىٰ التي أوضحت أن

---

(١) كتاب الوافي ج ٩/ الباب ٢٢ ص ٢٨.

الرسول الأكرم والأئمة ـ عليه وعليهم الصلاة والسلام ـ أظهروا مراراً وتكراراً التأثر والأسىٰ ضمن حديثهم عن أوضاع آخر الزمان والفتن التي تظهر والصعاب التي تنزل علىٰ أهل الحق.

روىٰ الشيخان الصدوق والطوسي ـ رضوان الله عليهما ـ كل بسنده عن سدير الصيرفي[1] رواية تتحدث عن بكاء وندبة سادس أئمةِ أهل البيت الإمام جعفر الصادق عليه السلام بشأن غيبة صاحب الزمان المهدي المنتظر عجل الله تعالىٰ فرجه الشريف ننقل هنا تحرياً للاختصار مقطعاً من هذا الحديث الشريف بما يرتبط بموضوع الندبة.

يقول سدير الصيرفي «دخلتُ أنا والمفضل بن عمر وداود بن كثير الرقي وأبو بصير وأبان بن تغلب علىٰ مولانا الصادق ـ عليه السلام ـ فرأيناه جالساً علىٰ التراب وعليه مسح خيبري[2] مطرّف بلا جيب مقصر الكمّين وهو يبكي بكاء الوالهة الثكلىٰ ذات الكبد الحرىٰ قد نال الحزن من وجنتيه وشاع التغير في عارضيه وأبلىٰ الدمع محجريه، وهو يقول:

سيدي، غيبتك نفت رقادي وضيقت عليّ مِهادي وابتزت مني راحة فؤادي.

سيدي، غيبتك أوصلت مصابي بفجايع الأبد وفقد الواحد بعد الواحد، يُفني الجمعَ والعددَ فما أحس بدمعةٍ ترقأ من عيني وأنين يفتُرُ من صدري عن دوارج الرزايا وسوالف البلايا إلا مُثِّل بعيني عن غوابر أعظمها وأفظعها وبواقي أشدها وأنكرها، ونوائب مخلوطةٍ بغضبك ونوازل معجونةٍ بسخطك»[3].

---

(١) سدير الصيرفي من أصحاب الإمامين الباقر والصادق ـ عليهما السلام ـ وقد روىٰ الكشي في رجاله (ص ١٣٨) حديثاً معتبراً يدل علىٰ سمو منزلة سدير.

(٢) ملبس خشن محاك من الشعر.

(٣) المقطع الأخير من هذه العبارات يشير إلىٰ الانتقام المهدوي العادل المقدس الذي =

قال سدير الصيرفي: فاستطارت عقولنا ولهاً، وتصدعت قلوبنا جزعاً، من ذلك الخطب الهائل والحادث الغائل، فظننا أنه سمتَ لمكروهة قارعةٍ أو حلت به من الدهر بائقة فقلنا: ـ لا أبكىٰ الله عينيك يابن خير الورىٰ، من أيةِ حادثةٍ تستذرف دمعتك وتستمطر عبرتك؟ وأية حالة حتمت عليك هذا المأتم؟! قال: فزفر الصادق ـ عليه السلام ـ زفرة انتفخ منها جوفه واشتد خوفه فقال: ـ

ويكم[1]! إني نظرتُ صبيحة هذا اليوم في كتاب الجفر[2] المشتمل علىٰ علم البلايا والمنايا وعلم ما كان وما يكون إلىٰ يوم القيامة الذي خصَّ الله تقدس اسمه به محمداً والأئمة من بعده عليهم السلام وتأملتُ فيه مولد قائمنا وغيبته وإبطاءَه وطول عمره[3] وبلوىٰ المؤمنين من بعده في ذلك الزمان وتولد الشكوك في قلوب الشيعة من طول غيبته وارتداد أكثرهم عن دينه وخلعهم ربقة الإسلام من أعناقهم......»[4].

والحديث مفصل طويل يشتمل علىٰ توضيح حكمة طول عمره ـ عليه

= يجبر تلك المصائب التي سببها الظالمون (من المترجم).

(١) مختصر ويحكم.

(٢) وردت العديد من الأحاديث الشريفة في مجامعينا الحديثية بشأن كتاب الجفر وهي تذكر أن هذا الكتاب الذي كان يورثه كل إمام لخلفه موجود عند الإمام المهدي وهو يشتمل علىٰ أخبار الملاحم والفتن (من المترجم).

(٣) راجع في موضوع طول العمر وسر غيبة الإمام المهدي كتاب «منتخب الأثر» بالعربية للمؤلف الأبواب ٢٦ و٢٧ و٢٨ و٢٩ و٣٠ من الفصل الثاني وكذلك مصنفه الآخر بالفارسية «نويد أمن وأمان» القسمين الثاني والثالث.

(٤) يُراجع «كمال الدين وتمام النعمة» للشيخ الصدوق ص ٣٥٢ ـ ٣٥٧ وكتاب «الغيبة» للشيخ الطوسي ص ١٠٤ ـ ١٠٨ من طبعة النجف.

السلام ـ وأن الله تعالىٰ قد أجرىٰ علىٰ القائم المهدي ما أجراه علىٰ ثلاثة من الأنبياء.

● قول السيد ابن طاووس: ـ

يقول السيد الأجل الأورع الأزهد، صاحب الكرامات، السيد رضي الدين أبو القاسم علي بن موسىٰ بن جعفر بن طاووس الحسني الحسيني (توفي سنة ٦٦٤ هـ. ق) في كتابه القيم «الإقبال» ص ٢٦٠ وبعد ذكر أدعية وداع شهر رمضان:

«ومن وظايف الشيعة الإمامية بل من وظايف الأمة المحمدية أن يستوحشوا في هذه الأوقات ويتأسفوا عند أمثال هذه المقامات علىٰ ما فاتهم من أيام المهدي الذي بشرهم ووعدهم به جده محمد ـ صلّىٰ اللّهُ عليهِ وآلهِ وسلّم ـ عليهما أفضل الصلوات وعلىٰ فقد ما كانوا ـ لو كان حاضراً ـ ظفروا به من السعادات ليراهم الله جل جلاله علىٰ قدم الصفاء والوفاء لملوكهم الذين كانوا سبب سعادتهم في الدنيا ويوم الوعيد وليقولوا ما معناه (شعر):

أردد طرفي في الديار فلا أرىٰ
وجوه أحبائي الذين أريد

فالمصيبة بفقده علىٰ أهل الأديان أعظم من المصيبة بفقد شهر رمضان، فلو كانوا قد فقدوا والداً شفيقاً أو أخاً معاضداً شقيقاً أو ولداً باراً رفيقاً أما كانوا يستوحشون لفقده ويتوجعون لبعده؟! وأين الانتفاع بهؤلاء من الانتفاع بالمهدي خليفة خاتم الأنبياء وإمام عيسىٰ ابن مريم في الصلة والولاء، ومزيل أنواع البلاء ومصلح أمور جميع من تحت السماء».

شبهات حول دعاء الندبة[(١)]

(١) من المناسب هنا الإشارة إلى أن أحد الأمراض الخطيرة والمعدية هو مرض الترديد والتأثر بالتشكيك في الموضوعات الدينية فكأن ثمة أرضية قد أعدوها لتقبل الشبهات والتشكيكات والمغالطات دون تحقيق ومناقشة مستوفية فيما يرتبط بالموضوعات الدينية، على العكس مما هو عليه الحال مع قضايا العصر والمسائل العلمية والاجتماعية والتربوية التي أنتجها ما يعرف كذبا بالتحديث والتقدم وعالم المادة والماكنة والمجتمعات الغربية وهو نتاج مقرون بتحطيم السدود الأخلاقية، فقد شاع الاقتناع السريع بها حتى أنهم أصبحوا يصدقون بالخرافات بدلا من الحقائق ويرضون بالتعامل المخزي والأعمال القبيحة للأجانب ويفضلونها على الاداب الحسنة فيقلدونهم دون نقاش.
هؤلاء يثيرون الاعتراضات غير المنطقية بما استطاعوا تجاه التقاليد الدينية والتوجيهات الإسلامية ويتهمونها بالخواء ويتساءلون عن عللها وفوائدها، لكنهم يقلدون ـ دون علم ودون ملاحظة أية فائدة ـ عادات الأجانب في الملبس والمأكل وطريقة تنظيم الشعر والشارب وفي الشؤون الاجتماعية والأسرية والثقافية، بل وغالبا ما يقلدونهم في ذلك عن علم بأضراره.
يثيرون الشبهات ويرفضون الأحاديث المروية في الكتب المعتبرة رغم استناد الخبراء وأهل الفن والاطلاع عليها، لكنهم يصدقون أخبار المؤسسات الخبرية ومحافل صناعة الإشاعات رغم توافر ألف احتمال للكذب فيها.
ومعلومٌ أن هذه الحالة ناشئة عن ضعف الأخلاق والجهل والغفلة وفقدان الثقة بالنفس والانقياد الأعمى لأفكار الأجانب وعاداتهم.
وقد ظهر البعض ـ يحاولون إدخال أنفسهم في زمرة المثقفين وإظهار أنفسهم بأنهم من أهل التحقيق والمنطق من خلال إثارة الشبهات والاستهزاء والسخرية بالاداب الدينية أو من خلال عدم الالتزام بها، وهذا الأمر يظهر في مستويات مختلفة وبشأن موضوعات متنوعة من قضايا أصول الدين والإلهيات والمحرمات والمستحبات والمكروهات، فهم يتحدثون عنها على نحو الاستفهام الاستهزائي. =

= وما رأيناه نحن هو أن معظم هؤلاء الأفراد إما فاقدون للصلاحية العلمية فهم عوام وأميون أو أنهم يسعون من خلال هذا الأسلوب إلىٰ إظهار أنفسهم بمظهر أصحاب الأفكار المتجددة فيصنعون لأنفسهم موقعاً لدىٰ بعض الشباب وغير العارفين جيداً بالمسائل الدينية والذين يصعب عليهم إدراك الكثير من الحقائق، وبذلك يصبحون أصحاب مدرسة فكرية وعلىٰ الأغلب يقومون ـ من أجل تضليل واستغفال السذج وغير المجربين ـ باستخدام العبارات الرنانة والمصطلحات والمفردات الإنجليزية والفرنسية وأسماء التيارات الفكرية المختلفة فيخدعون المنبهرين بالغرب وعشاق المصطلحات الأجنبية ويوقعونهم في الاشتباه والخلط، لأنهم إذا تحدثوا بلغةٍ واضحة بسيطة غير معقدة اتضحت أهدافهم وانتبه لها الكثيرون فتكسد بذلك بضاعتهم لذا فهم يغلفونها بالألفاظ والمفردات الأجنبية والمصطلحات الأجنبيّة ليتصور غير الخبراء بأن أقوالهم تستند علىٰ أساس علمي ثابت وفلسفة مقبولة جديدة.

وعلىٰ أي حالٍ فنحن وإلىٰ جانب اعتقادنا بأن باب البحث والتحقيق والنقاش الحر مفتوح للجميع ولا نعاتب أحداً على ذلك بل نرحب به ونعتبره عاملاً في تنوير الأفكار واتضاح الحقائق والمزيد من تجلي أنوار المعارف الإسلامية، ننصح ـ في المقابل ـ أمثال هؤلاء قائلين لهم: ـ أيها السادة إن التدليس والخلط وإثارة التشكيكات والشبهات والسخرية والاستهزاء بالحقائق وإضعاف عقائد العامة عن طريق السخرية والتجاوز والهجوم علىٰ هذا وذاك والسباب وإثارة سوء الظن بين الناس وجعلهم في حيرةٍ وإشاعة أفكار السوء، كل ذلك أمرٌ يسير؛ أما الأمر الصعب والعسير الذي لا يستطيعُ تحقيقَهُ أيٌ كان فهو إقامة الناس علىٰ أصول صحيحة وتوحيدهم وإخراجهم من الشبهات والشكوك وهدايتهم في مسار معقول مقرون بالخيرة وبسعادةِ الدنيا والآخرة، وهذه الخدمة العظيمة لا يستطيع إنجازها سوىٰ الأنبياء والأولياء والربانيين، فحتىٰ الفلاسفة والحكماء لم يستطيعوا الحصول علىٰ دور بناء في الجانب الإيجابي لهذا الموضوع.

أولئك الذين قاموا بلعبِ دور مخرب وسعوا لهدم هذا الصرح العظيم والملجأ الوحيد الذي بناه للناس الأنبياء بأمر الله، فالذي حققوه بالتالي عبر إيجاد الاضطراب وانعدام المصدر والمقصد والمسلك وأي مرضٍ عالجوه؟! وأي جرحٍ عالجوا من كل هذه الجراح التي مزقت جسد المجتمع الإنساني التي أصابته بها أيدي الجهل =

الأسئلة التي تطرح بشأن دعاء الندبة أربعة عشر سؤالاً هي عن:

١ ـ اعتبار الدعاء من جهة السند.

٢ ـ علاقة عبارة «ليت شعري أين استقرت بك النّوىٰ بل أي أرض تقلك أو ثرىٰ، أبرضوىٰ أو غيرها أم ذي طوىٰ» بإمام الزمان ـ عليه السلام ـ ولماذا البحث عنه في «ذي طوىٰ» وجبل «رضوىٰ» الذي تعتقد فرقة «الكيسانية» أنه محل اختفاء وغيبة محمد ابن الحنفية عن الأنظار وأنه سيظهر منه، في حين لا علاقة لإمام الزمان ـ عليه السلام ـ بهذا الجبل لا في غيبته الصغرىٰ ولا الكبرىٰ ولا بعد ظهوره، بل إن غيبته ـ عليه السلام ـ لا ترتبط أصلاً بمكانٍ محدد فهو يحضر في كل مكانٍ أراد ونحن الذين لا نشخصه ولا نعرفه.

وبناءً علىٰ هذا فإن التساؤل عن محل اختفائِهِ عليه السلام لا ينسجم مع طبيعة غيبة المهدي المنتظر حسب عقيدة الشيعة الإمامية.

٣ ـ ويتأكد السؤال (الاعتراضي) الثاني من خلال الدراسة الدقيقة لمتن الدعاء حيث لم يذكر الأئمة الاثنىٰ عشر ـ عليهم السلام ـ بلغة صريحة

= والفساد الأخلاقي والتكبر والحسد والغرور وعبادة المال؟!
إذا كان الحديث عن هذه القضية قد طال بما لا يتناسب مع هذا الكتاب، فإن هدف ذلك هو توضيح الفرق بين طلب الحقيقة والسعي لرفع مستوىٰ معارف وثقافة الرأي العام وتنويره واستحصال اليقين الأكمل والجهاد للوصول إلىٰ الحق، وبين إثارة الشبهات والاستهزاء بالحقائق والاتكال علىٰ الغرور والتشدق بمجموعةٍ من الألفاظ الخادعة والجوفاء، فهذا شيء وذاك شيءٌ آخر؛ ولا ينبغي الخلط بين فرسان ذاك الميدان المقدس الأبطال وبين هؤلاء الذين يستعرضون أنفسهم في الميدان الثاني، فالفرق بينهما كالفرق بين الثرىٰ والثريا، كما لا ينبغي الخلط بين إثارة الشبهات وبين طلب الحقيقة.

وبترتيبهم فهو وبعد التحدث بصورة مفصلة عن أمير المؤمنين ـ عليه السلام ـ ومناقبه وفضائله ينتقل بصورةٍ مباشرة ومفاجئة إلىٰ مخاطبة الإمام الغائب ـ عليه السلام ـ.

٤ ـ جملةُ «وعرجت بروحه إلىٰ سمائك» الواردة في الدعاء تخالف الإجماع والاتفاق وآيات القرآن المجيد والأحاديث الدالة علىٰ جسمانية معراج رسول الله ـ صلّىٰ اللّٰهُ عليهِ وآلهِ وسلّم ـ.

٥ ـ كيف يمكن نسب هذا الدعاء إلىٰ أحد الأئمة ـ وكلهم عقلاء كاملون ـ في حين أنه يخاطب إمام العصر ـ عليه السلام ـ قبل أن يولد بعباراتٍ مثل «ليت شعري أين استقرت بك النوىٰ. . . إلخ»؟!

٦ ـ إن دعاء الندبة قد ظهر بعد رسول الله وأئمة الهدى ـ عليهم السلام ـ ونُسب إليهم فهو بدعة.

٧ ـ عبارة «وسألك لسان صدقٍ في الآخرين فأجبته وجعلت ذلك علياً» تخالف ما ورد في القرآن الكريم.

٨ ـ كما أن عبارة «وأوطأته مشارقك ومغاربك» تخالف القرآن المجيد أيضاً.

٩ ـ وتخالف القرآن الكريم أيضاً عبارة «وأودعته علم ما كان وما يكون إلىٰ انقضاء خلقك».

١٠ ـ ولا تنسجم مع القرآن أيضاً عبارة «ثم جعلت أجر محمد صلواتك عليه وآله مودتهم في كتابك. . . إلخ».

١١ ـ والسؤال الآخر (الشبهة الأخرىٰ) هو أن هذا الدعاء يُتلىٰ في ألف مسجد ومكان فهل الإمام حاضرٌ في كل مكان يسمع مثل الله تعالى؟! بالطبع كلا فإن لم يكن حاضراً في كل مكان فإن ما نقرأه في الدعاء «يابن السادة المقربين، يابن النجباء الأكرمين» هو خلاف العقل.

١٢ ـ وما يخالف العقل مما ورد في الدعاء قوله: «يابن الطور

والعاديات، يابن يس والذاريات».

١٣ ـ إن التوجه بالدعاء لغير الله شرك وحيث إن الإمام يُدعىٰ في هذا الدعاء فقراءته شرك وكفر.

١٤ ـ إن قراءة هذا الدعاء عامل في تجميد النشاطات الإسلامية وخمود وتخدير الأفكار وإقناع النفوس بالندبة والبكاء، وهو مانع لتأجج نيران السخط والثورة والانتفاضة ضد أهل الباطل، فهو يصد الناس عن التحرك وعن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والسعي لإقامة النظام الإسلامي الصحيح.

ولعل الشبهات والأسئلة المثارة بشأن هذا الدعاء الشريف لا تتعدىٰ هذه الأربعة عشر وسنجيب علىٰ كل منها ـ بحول الله وقوته ـ بصورةٍ مستقلة.

● **تنبيه مهم:**

معلومٌ أن الاعتقاد بأنّ دعاء الندبة الشريف ليس من أصول الدين، لذلك فعدم الاعتقاد بذلك، لا يضر بصحةِ العقائد والأصول المعتبرة عند الشيعة. وهذا الموضوع مسألة فرعية وكلُ من كان من أهل الاجتهاد حرٌ في إبداء رأيه بشأنها، ولا أحب أن يكون هذا الموضوع أيضاً سبباً لتشكيل جبهتين: ـ مؤيدة ومعارضة؛ نعم إن بعض الشبهات المثارة والقائلة بعدم اعتبار هذا الدعاء تعبر عن مناهج مذهبية خاصة وميولٍ لآراء شاذة ولأفكار النواصب وأعداء عترة رسول الله ـ صلّىٰ اللّه عليه وآله ـ وهذه الأطراف مخالفة لمذهب الشيعة وطريقة أهل بيت الرسالة ـ عليهم السلام ـ عصمنا الله وجميع إخواننا من الزلات وهدانا إلىٰ صراطه المستقيم.

مناقشة الاعتراض الأول والإجابة عليه
اعتبار سند دعاء الندبة

آل الأمر في تحقيقات علم الأصول إلىٰ اعتبار «الاطمئنان بصدور الحديث» معياراً في الاعتبار فيما يرتبط بحجيةِ خبر الواحد وهذا ما يؤيده مقتضىٰ العرف والعقلاء، بل إنهم يعتمدون علىٰ الأخبار التاريخية والروايات التي قد لا يثق بها المحدث، فيقبلون خبر حادثةٍ ما إذا وردت في كتاب تاريخي معتبر أو مشهور.

لكن علماء الإسلام لا يكتفون بهذا المقدار والأسلوب العرفي في قبول الأخبار والأحاديث المتعلقة بأحكام الشرع وتعيين أهداف الدين وتعاليمه وتفسير القرآن والفقه، فهم يعمدون إلىٰ المزيد من البحث والتحقيق والتدقيق فيناقشون بدقةٍ كاملة في رجال سند الأحاديث وعدالة وثقة الراوي وسوابقه الأخلاقية وعقيدته ومسلكه السياسي ولا يعملون بالحديث ما لم يحصلوا علىٰ الاطمئنان الكامل به، والمبادىء التي تُراعىٰ في هذا الباب تكشف عن غاية الدقة والتثبت واهتمام علماء الشيعة بمعرفة الواقع والتوصل إلىٰ الحقيقة.

وهذا التدقيق والتحقيق والتثبت لاستحصال الاطمئنان بصدور الحديث (عن المعصوم) يتأكد فيما يتعلق بالأحاديث المرتبطة بالحكم الإلزامي مثل

الواجب والحرام أو المعاملات والأمور المالية والحقوقية والسياسية، في حين أن التعامل مع الأحاديث الأخرىٰ ـ كالمتحدثة عن أصول العقائد[1] والمستحبات ـ لا يحتاج إلىٰ هذا المقدار من التحقيق والدقة.

وفي باب الدعاء، إذا كانت مضامينه مقبولة يؤيدها الشرع فإن تلاوته راجحة ومستحبة طبق عموميات القرآن الكريم وروايات الدعاء، حتىٰ إذا كان سنده غير معتبر أو أن وروده بخصوص المورد غير ثابت لأن الدعاء ـ علىٰ نحو العموم ـ وارد وراجح ومن العبادات المؤكدة، فليست هناك حاجة شديدة في مقام العمل لمعرفةِ سند الدعاء، فيكفي هذا القصد لتلاوته والحصول علىٰ فيضه وثوابه الخاص استناداً إلىٰ أخبار «مَن بلغ» حتىٰ إذا كانت التلاوة بنية رجاء المطلوبية.

وتزيد من اعتبار الدعاء قوة متنه وألفاظه ومضامينه وهذا ما يعرفه العارفون باللغة وبأخبار وكلام أهل البيت عليهم السلام وبالأدعية الواردة عنهم؛ كما أنهم يدركون من خلال ملاحظة ضعف سبك عبارات بعض الأدعية ومضامينها غير السامية، عدم صدورها عنهم ـ عليهم السلام ـ.

وبعد هذه المقدمة القصيرة والمختصرة نقول فيما يتعلق باعتبار دعاء الندبة الشريف، أنه ـ من حيث السند ـ معتبر ويبعث علىٰ الاطمئنان بصدوره عن المعصوم وإن لم يكن مسنداً، ولا حاجة به للمزيد من الاعتبار لكي نتلوه ونواظب عليه لأن: ـ

١ ـ السيد الجليل صاحب المناقب والمفاخر السيد رضي الدين بن طاووس ـ قدس سره ـ وهو من أعلام القرن السابع الهجري ومن كبار رجال الشيعة وهو المعروف بالعلم والورع والزهد والعبادة والاطلاع علىٰ الكتب

---

(١) في المقاطع التي تتعلق بموضوعات عقلية محضة يُلاحظ ويُدرس متن الحديث فقط، أما المقاطع التي تشتمل أيضاً علىٰ دليل إثباتها يجب ملاحظة ودراسة سند الحديث أيضاً.

والمصنفات، قد روىٰ هذا الدعاء في كتابه القيم «إقبال الأعمال» (ص ٢٩٥ ـ ٢٩٩) وكذلك في كتاب «مصباح الزائر» في الفصل السابع.

كما رواه الشيخ الجليل محمد بن جعفر بن علي المشهدي الحائري وهو من أعلام القرن السادس في كتابه «المزار» المعروف بمزار محمد بن المشهدي الذي يصفه العلامة المجلسي بالمزار الكبير (الدعاء ١٠٧). والدعاء مروي أيضاً في كتاب المزار القديم الذي يبدو أنه من مصنفات القطب الراوندي، ونقل هذا الدعاء في هذه الكتب الثلاثة دليل علىٰ أن هذه الشخصيات الجليلة شخصت كونه دعاءً معتبراً.

وإذا قال قائل بعدم وجود مصدر لهذا الدعاء سوىٰ كتاب السيد ابن طاووس والسيد رواه أيضاً عن بعض المجهولين من الشيعة لأن عبارته هي «ذكر بعض أصحابنا: قال: قال محمد بن علي بن أبي قرة: نقلتُ عن كتاب محمد بن الحسين بن سفيان البزوفري رضي الله عنه دعاء الندبة وذكر أنه لصاحب الزمان صلوات الله عليه ويُستحب أن يُدعىٰ به في الأعياد الأربعة».

فالجواب: أولاً؛ كما قدمنا وكما سنقول لاحقاً فإن هذا الدعاء مروي في الكتب المصنفة قبل عصر السيد، وثانياً؛ فإن مثل السيد ابن طاووس لا ينقل عن شخصٍ مجهول بوصف «بعض أصحابنا» المشعر بالتعظيم والتوقير؛ وثالثاً فإن كل من كان من أهل هذا الفن ينتبه إلىٰ أن مراد السيد من هذا الوصف هو الشيخ محمد بن المشهدي صاحب المزار الكبير، وعبارته في الدعاء ١٠٧ من مزاره هي «الدعاء الندبة، قال محمد بن أبي قرة: نقلت من كتاب أبي جعفر محمد بن الحسين بن سفيان البزوفري ـ رضي الله عنه ـ هذا الدعاء وذكر فيه أنه لصاحب الزمان صلوات الله عليه وعجل فرجه وفرجنا به ـ ويستحب أن يُدعىٰ به في الأعياد الأربعة».

وقارنوا بين هذه العبارة وعبارة السيد ابن طاووس واحكموا بأنفسكم.

٢ ـ وقبل هؤلاء الأجلاء الثلاثة فقد روىٰ دعاء الندبة الشيخ الجليل الثقة، أبو الفرج محمد بن علي بن يعقوب بن إسحاق بن أبي قرة القناني،

المعاصر للشيخ النجاشي، وهو من مشايخ وأعلام القرن الخامس، رواه في كتاب الدعاء الذي أكثر النقل منه الشيخ محمد بن المشهدي في كتاب المزار والسيد ابن طاووس في مصباح الزائر والإقبال، واعتمد عليه وهو من مصادر كتاب المزار القديم أيضاً.

وابن أبي قرة هو ـ كما تقدم ـ من رجال الشيعة وله إضافة إلىٰ كتاب الدعاء المذكور كتاب أخر اسمُهُ «التهجد» والرجل موثق في كتب الرجال كرجال النجاشي والعلامة الحلي وروايته للدعاء دليلٌ علىٰ أنه قد رآه معتبراً بل وأيد استحباب تلاوته في الأعياد الأربعة كما هو الظاهر أن السيد ابن طاووس والشيخ محمد بن المشهدي ـ عليهما الرحمة ـ قد قالا بهذا الاستحباب الخاص.

٣ ـ كما رویٰ دعاء الندبة، الشيخُ الجليلُ الثقة أبو جعفر محمد بن الحسين بن سفيان البزوفري[١] في كتابه «الدعاء»، وهو من مشايخ الشيخ المفيد ـ رضوان الله عليهما ـ، وحسب أسانيد روايات كتاب الأمالي للشيخ أبي علي الطوسي فإن الشيخ المفيد رویٰ كثيراً عنه وترحم عليه، وقد عده المحدث النوري في خاتمة المستدرك الشيخ الثاني والأربعين من مشايخ الشيخ المفيد وشهد بوثاقته وجلالة قدره، وهذا الشيخ الجليل قد أفتیٰ صراحة باستحباب تلاوة هذا الدعاء.

وإذا قيل بأن «محمد بن الحسين البزوفري قد اعتبره أصحاب كتب الرجال من المجاهيل»، فالجواب هو: ـ كما تقدم التحقيق بشأنه فهو ليس مجهولاً بل معلوم الحال ومن مشايخ الشيخ المفيد الذي رویٰ عنه كثيراً[٢]

---

(١) «بزوفر» بفتحتين وسكون الواو وفتح الفاء قرية كبيرة من توابع قوسان قرب واسط وبغداد في جانب نهر «الموفق» غربي دجلة (معجم البلدان ج ٢، ص ١٦٦).

(٢) المرحوم الأستاذ الأعظم والزعيم الأكبر آية الله البروجردي ـ قدس سره ـ وهو فريد في التبحر في علم الرجال والحديث ومعرفة الطبقات والتمييز بين المشتركات ـ كما كان متبحراً في سائر العلوم الإسلامية ـ، كان يقول: إنّ أحد طرق معرفة الرجال =

وترحم عليه كما أن الشيخ محمد بن المشهدي والسيد ابن طاوس قد قالا في حقه «رضي الله عنه».

وإذا قال قائل: إن محمد بن الحسين البزوفري لم يكن معاصراً للأئمة ليروي عنهم هذا الدعاء وليس معروفاً من أين أخذه.

فنجيب؛ وهل قال أحد أنه قد روىٰ الدعاء عن الإمام دون واسطة؟! وهل يجب أن يكون كل مَن يروي حديثاً عن الإمام معاصراً له؟! ألا يمكن أن يكون قد روىٰ الحديث في كتابه مسنداً أو أن ينقل رواية معتبرةً وثابتة في كتابة مرسلة بحذف السند، بل وحيث أن المتعارف في العصور القريبة من عصر الأئمة ـ عليهم السلام ـ كان عدم نقل رواية غير مسندة وإذا كانت غير مسندة ذكروا نص المتن، من هنا يحصل الاطمئنان بأن هذا الدعاء إما أنه كان مروياً بسنده في كتاب البزوفري ثم لم ينقل الذين نقلوه من هذا الكتاب سنده مسامحةً وإما أنه كان معروفاً ومشهوراً إلىٰ درجةِ أن البزوفري وجد نفسه في غنىً عن ذكر سنده.

وعليه يمكن الحدس بأن تلاوة هذا الدعاء كانت متداولةً ومتعارفةً بين الشيعة في العصور القريبة من عصر الأئمة (ع) وفي عصر الغيبة أيضاً كما هو الحال في عصرنا، وقد انتقلت هذه السنة من يد لأخرىٰ وإلىٰ الأخلاف من الأسلاف في حضور المحدثين ومشايخ تلك العصور المتبحرين جميعاً في علم الحديث وأساتذة هذا الفن والذين كانوا يشددون في المنع من قراءة الأدعية غير المسندة والأساليب غير المعتمدة، ورغم ذلك لم يعترض أحدٌ منهم علىٰ اعتبار الدعاء المذكور.

٤ ـ العلامة المجلسي بما امتاز به من دقةٍ وإحاطة واطلاع واسع

= هي معرفة شخصية تلامذتهم، وعندما تكثر شخصيةٌ مثل الشيخ المفيد الرواية عن شخص معين ودون أن يرد فيه قدح أيضاً فهذه علامة علىٰ أن هذا الشخص كان موثقاً ومعتمداً.

واستثنائي في الأخبار والأحاديث والرجال والروايات ومعرفة الأسانيد، روىٰ هذا الحديث في بحار الأنوار وكتاب «تحفة الزائر» الذي شهد في مقدمته بكون أسانيد ما أورده فيه من الأدعية معتبرة، وإضافة لذلك فقد نقله في كتابه القيم «زاد المعاد» مصرحاً ومصدقاً وبالخصوص علىٰ كون سند دعاء الندبة معتبراً، ونص ترجمة عبارة مفخرة عالم الإسلام ونابغة دنيا العلم في كتاب «زاد المعاد» هي: ـ

«وأما دعاء الندبة المتضمن للعقائد الحقة وإبداء الأسىٰ لغيبة الإمام القائم ـ عليه السلام ـ فهو مروي عن الإمام جعفر الصادق ـ عليه السلام ـ بسندٍ معتبر، والسنة (الاستحباب) تلاوة دعاء الندبة في الأعياد الأربعة أي الجمعة وعيد الفطر وعيد الأضحىٰ وعيد الغدير».

ويقينٌ أنه لم يقل مثل هذا الكلام الصريح والشهادة القوية دون مصدر معتبر.

وإضافة للعلامة المجلسي فقد استند السيد الجليل العلامة صدر الدين محمد الطباطبائي اليزدي (المتوفى سنة ١١٥٤ هـ. ق) إلىٰ حديث مروي عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام في بداية الشرح الذي صنفه لدعاء الندبة.

واستناداً لمجموع ما تقدم يُحرز الاطمئنان باعتبار هذا الدعاء وصدوره عن الإمام ـ عليه السلام ـ خاصةً مع ملاحظة متنه، ويثبت بصورةٍ قطعية استحباب تلاوته بالخصوص واستناداً إلىٰ الأدلة العامة علىٰ الأقل، فلا يبقىٰ أي إشكال في ذلك ولا حاجة حتىٰ للتمسك بأخبار «من بلغ».

أخبار «من بلغ» والتسامح في أدلة السنن

تصور البعض أن مستند الذين رووا هذا الدعاء في كتبهم وأفتوا باستحباب قراءته هي أخبار «مَن بلغ» والتسامح في أدلة السنن، لذا أشكلوا علىٰ ذلك بقولهم إن التسامح في أدلة السنن يكون في المورد الذي يتصل

سند ضعيف بالمعصوم في حين لم يذكروا لدعاء الندبة سنداً متصلاً بالمعصوم.

والجواب على هذا الإشكال هو:

أولاً: إن الاطمئنان حاصل بصدور هذا الدعاء عن المعصوم ـ عليه السلام ـ والملاك في حجية خبر الواحد هو الاطمئنان بالصدور ولذا يُستند أحياناً في الفقه علىٰ الأخبار الموقوفة أيضاً.

وثانياً: إن استحباب هذا الدعاء ثابت طبق إطلاق أدلة الدعاء العامة.

وثالثاً: لم يُذكر في باب التسامح في أدلة السنن وأخبار «مَن بلغ» ـ وجوب أن يكون البلوغ متصلاً إلىٰ المعصوم بل يكفي البلوغ بأي نحو كان مرسلاً كان أو متصلاً، فلماذا تسطرون حاشيةً على القاعدة والأحاديث دون دليل وتقيدون إطلاقها؟! إن فتوىٰ الفقيه برجحان عمل يكفيها في بلوغ الاستناد حتىٰ إلىٰ رواية محتملة كما صرح بذلك الشيخ الأعظم الشيخ مرتضىٰ الأنصاري ـ رحمه الله ـ في التنبيه الخامس من تنبيهات الرسالة التي صنفها حول التسامح في أدلة السنن، والأولىٰ بالاعتبار فتوىٰ الفقهاء الذين ذكروا متون الروايات أيضاً في الكتب الفتوائية، في حين أن القدماء كانوا يعملون برسالة علي بن بابويه القمي في موارد فقدان النص أو «عند إعواز النصوص» باللغة العلمية في موارد المستحبات ومع وجود أخبار «من بلغ» فإن ورود مطلق الخبر وفتوىٰ الفقيه، كافٍ بطريق أولىٰ[1].

---

(١) فيما يتعلق بمباحث هذا الفصل يُراجع: ـ رجال النجاشي ص ٢٨٣، رجال العلامة ص ١٦٤، هدية الزائرين ص ٥٠٧، الكنىٰ والألقاب ج ١، ص ٤٠٣، بحار الأنوار ج ١، ص ١٨، الذريعة ج ٨، ص ١٨٣، ص ١٩٣، ص ١٩٥، وج ٤، ص ٥٠٣، مصباح الزائر الفصل السابع (نسخة خطية)، مزار محمد بن المشهدي الدعاء ١٠٧ (نسخة خطية) وكلاهما موجودتان في مكتبة آية الله المرعشي النجفي، الإقبال ص ٢٩٥ ـ ٢٩٩، مستدرك الوسائل ج ٣، ص ٥٢١، زاد المعاد وتحفة الزائر للعلامة المجلسي، رسالة جواز التسامح في أدلة السفن للشيخ الأنصاري، معجم البلدان، شرح دعاء الندبة للسيد محمد الطباطبائي.

مناقشة الاعتراض الثاني والإجابة عليه
علاقة إمام الزمان - عليه السلام - برضوى وذي طوى

بغية مناقشة السؤال بصورة أفضل من الضروري أن نعرف هذين المكانين المقدسين: ـ ذي طوىٰ، ورضوىٰ، ثم نقدم الإجابة.

● ذو طوىٰ: ـ

ذكر صاحب «مجمع البحرين» أنها ـ بفتح الطاء أو ضمها وهو الأشهر ـ اسم لمكان داخل الحرم يبعد فرسخاً من مكة ويشاهد منه دور مكة، وذكر صاحب القاموس أنها مثلثة الطاء وقد يكون تلفظها أحياناً بالتنوين وهي محل قرب مكة، كما نقل الحموي في معجم البلدان عن الجوهري أنها بضم الطاء محل قرب مكة.

أما صاحب كتاب «أخبار مكة المشرفة»[1] فقد ذكر أن ذا طوىٰ مصلىٰ النبي ـ صلَّىٰ اللَّه عليه وآله ـ وكان ينزل في هذا المحل كلما قدم إلىٰ مكة ويتوقف فيه ليله ويقيم فيه صلاة الفجر، وروىٰ في نفس هذا الكتاب[2] أن ذا طوىٰ تعني بطن مكة أي أرضها، وفي كلا الحالين فذو طوىٰ محل مقدس محترم ومبارك ومن منازل رسول الله ـ صلَّىٰ اللَّه عليه وآله ـ.

● رَضْـــوَىٰ:

رَضْوَىٰ بالفتح مثل سَكرىٰ، جبل من جبال المدينة الطيبة مقدس ومبارك، يقع قرب ينبع وفيه سفوح ووديان وأراضٍ ومياه وأشجار، وهو أول جبال تهامة وبينه وبين المدينة المنورة مسيرة أربع ليالٍ وقد وردت في مدحه

---

(١) ج ١، ص ٤٣٦.
(٢) ج ١، ص ١٩٧.

وفضله عدة روايات[١] .

● أما الجواب علىٰ السؤال : ـ

فبالنسبة لما قلتم بأن غيبة الإمام ـ عليه السلام ـ ليست في مكانٍ معينٍ اختاره منزلاً له حتىٰ يخرج منه، فهذا قول حق صحيح، فهو ـ عليه السلام ـ ليس مختفياً في رضوىٰ ولا في ذي طوىٰ ولا في سرداب الغيبة كما افترىٰ بعض العامة علىٰ الشيعة، فالقول بأن الإمام غائب في السرداب ويظهر منه وأن الشيعة تنتظر خروجه منه؛ هو من الافتراءات المفضوحة الواضحة[٢] .

والأمر يصدق علىٰ رضوىٰ وذي طوىٰ فهما ليسا منزلاً للإمام صاحب الزمان ـ عليه السلام ـ طوال فترة الغيبة، وهذا ما لم يقل به الشيعة الإمامية وحتىٰ أهل العامة لم ينسبوه لهم، نعم فقط فيما يتعلق بمحمد ابن الحنفية يُنقل أن بعض فرق «الكيسانية» التي انقرضت مُنذ قرون كانوا يعتقدون بأنه مقيم في جبل رضوىٰ[٣] .

وصحيحٌ القول بأنه عليه السلام ليس له مكان معين يستقر فيه في عصر غيبته بل إنه يحضر في كل مكانٍ أراد ويؤدي واجباته ونحن الذين لا نراه

---

(١) راجع كتاب «وفاء الوفا بأخبار المصطفى» الفصل ٧ من الباب ٥، وكذلك الفصل ٨ من الباب ٧/ ص ٩٢٦ ـ ٩٢٧ من الجزء الثالث وص ١٢١٨ ـ ١٢١٩ من الجزء الرابع.

(٢) ورد الحديث بصورة مفصلة عن هذا الافتراء وإثبات بطلانه بالكامل في كتابي «نويد أمن وأمان» بالفارسية ص ٢٠٤ ـ ٢٠٦ وكتاب «منتخب الأثر» ص ٣٧١ ـ ٣٧٣ من مصنفات المؤلف.

(٣) «الكيسانية» كانت فرقاً عديدة: ـ فرقةٌ تقول إن محمد ابن الحنفية لم يمت وأنه غاب ومكانه غير معروف، وأخرىٰ تقول إنه أقام في جبل رضوىٰ، وثالثة تقول إنه رحل عن هذا العالم وقام محله ولده عبد الله أبو هاشم، وإجمالاً فالفرق واختلافاتها كثيرة، والقائلون بأنه في جبل رضوىٰ كانوا إحدىٰ فرق الكيسانية (راجع كتاب «فرق الشيعة» للنوبختي ص ٢٦ ـ ٣٦، وكذلك كتاب التبصير ص ٣٤ ـ ٣٨).

وهذا ما يصرح به أيضاً دعاء الندبة نفسه حيث يقول «بنفسي أنت من مغيب لم يخلِ منّا»، وهو ما يُستفاد مما ورد في نهج البلاغة وأحاديث أخرىٰ أيضاً[1] ، وقد ورد في نص إحدىٰ الزيارات: ـ

«السلام علىٰ الإمام الغائب عن الأبصار الحاضر في الأمصار».

علاقة الإمام (ع) بذي طوىٰ ورضوىٰ

اتضح مما تقدم أن مقر الإمام ـ عليه السلام ـ لا في ذي طوىٰ ولا في رضوىٰ وأن هذه الجملة «ليت شعري أين استقرت بك النوىٰ بل أي أرض تقلك أو ثرىٰ» ليست تساؤلاً عن مقره لا في الزمن الحالي ولا حتى الخطاب والدعاء بل ليست استفهاماً حقيقياً أيضاً لأن الأحاديث تؤكد عدم اطلاع أحد علىٰ مقره ـ عليه السلام ـ[2] وهذا ما تؤيده نفس العبارات والتساؤلات الواردة في نفس هذا الدعاء؛ وعليه فهذه الجملة تدل علىٰ عدم وجود مقر معين له ـ عجل الله تعالىٰ فرجه ـ وبالتالي فلا ارتباط لها بعقيدة «الكيسانية» المنقرضة بل إن هذه الجملة والكثير من عبارات هذا الدعاء تبطل صراحة عقيدة «الكيسانية»، وترد بذلك الاستبعاد المذكور (لصحة الدعاء).

يا سيدي! تدبروا، هذه العبارات فأي ارتباط لها بعقائد الكيسانية أو محمد ابن الحنفية وهي وغيرها تدحض صراحة عقائد هذه الفرقة وإمامة ومهدوية ابن الحنفية: ـ

«أين الحسنُ، أين الحسين، أين أبناء الحسين، صالحٌ بعد صالح، وصادقٌ بعد صادق، أين السبيل بعد السبيل، أين

---

(١) يُراجع نهج البلاغة/ الخطبة رقم ١٤٦ التي تبدأ بـ«وأخذوا يميناً وشمالاً...» وكذلك كتاب الغيبة للشيخ الطوسي ص ١٠٢ ومنتخب الأثر للمؤلف ص ٢٥٧ وص ٢٦٢، الباب ٢٧ الفصل الثاني.

(٢) راجع كتاب الغيبة للشيخ الطوسي ص ١٠٢.

الخيرةُ بعد الخيرة، أين الشموس الطالعة. . . (إلىٰ قوله)، أين ابنُ النبي المصطفىٰ وابنُ علي المرتضىٰ، وابن خديجة الغراء وابن فاطمة الكبرىٰ، بأبي أنت وأمي ونفسي لك الوفاء والحمىٰ يابن السادة المقربين، يابن النجباء الأكرمين. . .».

وتوجد في الدعاء العشرات من هذه العبارات وجميعها موافقة لمذهب الشيعة الاثنىٰ عشرية ومعارضة للكيسانية والقائلين بإمامةِ محمد ابن الحنفية.

وإذا قيل: ـ لا شك بأن هذه الجملة لا تؤيد عقيدة الكيسانية بل إنها وسائر الجمل الأخرى تعلن بطلانها، ولكن ما علاقة صاحب الزمان ـ عجل الله تعالىٰ فرجه الشريف ـ بهذين المكانين ولماذا ورد ذكرهما بالخصوص؟!

فالجواب هو: ـ إن علاقته بهما كعلاقته بسائر الأماكن المقدسة المباركة التي لعبادة الله فيها فضيلة مثل المسجد الحرام ومسجد مدينة طيبة والمشهد الغروي والمشهد الحسيني ومسجدي الكوفة والسهلة التي ثبت ـ تردده عليه السلام ـ عليها، وقد ورد ذكر هذين المكانين المقدسين في الدعاء بسبب هاتين الخصوصيتين، إذْ يُستفاد من بعض الأخبار أن جبل رضوىٰ هو من مقاماته والأماكن التي يذهب إليها في غيبتيه الصغرىٰ والكبرىٰ[1].

والنكتة هي أن ذكر هذين المكانين ـ وإضافة إلىٰ كون ذكرهما في هذا الدعاء قد يكون إشارة إلىٰ اشتباه الكيسانية في تعيين المهدي وأن ذاك الموعود الذي يشترك الجميع في انتظاره هو من عترة النبي ومن أولاد علي وفاطمة وسليل الأئمة والحجج الإلٓهية ـ يشتمل علىٰ التفاتةٍ أدبية، لأن ذكرهما أنسب في مقام الندبة وإبداء الأسف من عدم الاطلاع علىٰ مكانه ـ عليه السلام ـ، وذكرهما أكثر تأثيراً في القلوب من ذكر الأماكن الأخرىٰ كذكر

---

(١) غيبة الشيخ الطوسي ص ١٠٣/ بحار الأنوار ج ٢٢، ص ٢٦٧/ مصباح الأنوار ج ٢، ص ٣٤٥.

بيته في سامراء أو المسجد الحرام أو مسجد النبي ـ صلّىٰ اللّه عليه وآله ـ فنحن إذا أردنا ذكر المحبوب المسافر والتحرق والبكاء من نار هجرانه وإبداء القلق من عدم العلم بحاله ومكانه وراحته فإننا نبحث عنه بذكر الجبال والبحار والصحاري فلا نقول: لا ندري أين أنت الآن وإلىٰ أي منزلٍ وصلت وفي أي مخدعٍ استرحت أو في أي حجرةٍ أو روضة جلست!! لأن مثل هذه المضامين تُسكّن الألم بل المناسب أن نقول: لا ندري أين أنت الآن؟! هل تسير في الصحراء أم أنت وحيد في الجبال في أذىً وأنت بعيد عن الحواضر.

فالتزاماً بقواعد البلاغة والبيان بمقتضىٰ الحال يجب استخدام مثل هذه العبارت في مقام الندبة، وهذه النكات يدركها الذوق السليم والطبع المستقيم المنسجم مع الأدب.

ويمكن أن يكون في ذكر أماكن مثل رضوىٰ وذي طوى إشارة إلىٰ أن جميع الأماكن المقدسة ـ حتىٰ ذي طوىٰ ورضوىٰ الذي تهتم به الكيسانية ـ هي تحت تصرف الإمام المهدي ومحال تردده.

وبعد هذه الاحتمالات الثلاثة هناك احتمال آخر وهو أن يكون المراد من ذي طوىٰ ـ كما ورد في كتاب أخبار مكة المشرفة ـ هو مكة المكرمة نفسها والمراد من رضوىٰ هي مدينة طيبة[1].

وعلىٰ أي حال فذكر هذين المكانين في مثل هذا الدعاء جاء رعاية لنكات أدبية في البلاغة أو في المعنىٰ، وهو لا يضعف بأي وجه متن الدعاء خاصةً مع الالتفات إلىٰ عبارات من أمثال «بنفسي أنت. . .» وكلمة «أم غيرها» وكلمة «أم ذي طوىٰ» وهي صريحة بأننا لا نحدد مقراً معيناً له ـ عليه السلام ـ وبذلك يتضح أن لا علاقة لها أصلاً بعقائد الكيسانية.

● ملاحظة جديرة بالاهتمام:

وردت هذه الجملة الاستفهامية «ليت شعري. . .» في زيارات أخرىٰ،

---

(١) بقرينة المقابلة.

وإضافة إلىٰ ما نقله العلامة المجلسي في البحار[1] روىٰ العلامة المتبحر السيد عبد الله شبر ـ قُدس سرهما ـ عن جمعٍ من مشايخه ضمن إحدى الزيارات هذا اللفظ : ـ

«ليت شعري أين استقرت بك النوىٰ أم أي أرضٍ تقلك أو ثرىٰ، أبرضوىٰ أنت أو ذي طوىٰ»[2] .

(١) بحار الأنوار ج ٢٢، ص ٢٤٠.
(٢) مصابيح الأنوار ج ٢، ص ٣٤٤ الحديث رقم ٢٠٣.

مناقشة الاعتراض الثالث والإجابة عليه

دعاء الندبة وإمامة الأئمة الاثني عشر عليهم السلام

عدم تصريح دعاء الندبة بأسماء وعدد الأئمة الاثني عشر ـ عليهم السلام ـ لا ينقص شيئاً من قوة متنه ولا يخل باعتباره من هذه الجهة، وعدم التصريح هنا لا دلالة له في هذا المجال خاصةً مع عدم وجود أي تصريح ولا إشارة في الدعاء لأي مطلبٍ يخالف مذهب الأئمة الاثني عشر.

المطالب الأساسية والحساسة والقيمة المتعلقة بموضوع النبوة ثم خلافة الإمام علي ـ عليه السلام ـ وولايته وبعض من نصوص وأدلة هذا الموضوع وجهاد وتضحيات وفضائل ومناقب أمير المؤمنين هي المواضيع التي تناولها دعاء الندبة، كما تناول الحديث عن أشكال الخلاف والعداء الصادرة عن أهل الحقد والنفاق وعبدة المنصب والجاه ضد هذا الخليفة المنصوب والمعين من قبل الله ورسوله وقيامهم بحرف مسيرة الإسلام الحقيقية المؤدية إلىٰ تحقيق سعادة وتحرير كافة بني الإنسان وجعلهم القائد الإسلامي الحقيقي جليس الدار.

ومعلومٌ أن القضية الأساسية المهمة التي تعرضت لها ـ بدرجة أكبر ـ الأحاديث الشريفة والأخبار والأدعية هي قضية الإمامة حيث إن الإعراض عن التمسك بالإمام المنصوب والمعين مُنذ البداية واليوم الأول أعاد تلك السنة السيئة لتسلط غير الكفؤين كما كان عليه الحال في عصر الجاهلية، وأدىٰ إلىٰ تأخير تنفيذ السياسات الإنقاذية والتحررية الإسلامية بصورةٍ شاملة وعالمية كاملة وإيكالها إلىٰ ظهور حضرة بقية الله صاحب الزمان ـ عجل الله تعالىٰ فرجه ـ.

وهذه المصيبة هي الأعظم من كل مصيبة؛ فعلىٰ الرغم من كل وصايا النبي الأكرم ـ صلَّىٰ اللَّه عليه وآله ـ وإعلاناته العديدة وتعيينه الرسمي التاريخي في يوم الغدير وعلىٰ الرغم من كل التأكيدات البليغة، قام أولئك ـ

بدافع حب الجاه وأحقادهم علىٰ مولىٰ المتقين علي ـ عليه السلام التي خزنتها قلوبهم من غزوات بدر وأُحد وخيبر وحنين والأحزاب وغيرها ـ بعزل رجل الحق والعدالة الفذ والإمام الكفؤ والعالم الفاتح، وعادوه لكونه أزال أقرباءَهم المشركين والمستبدين والمستغلين الذين كانوا عقبة بوجه إنقاذ المجتمعات المحرومة وانتشار دين التوحيد والمناهج الإلّهية والتقدمية للإسلام؛ وبعدائهم له ومن خلال أشكال السياسات المنحرفة والخداع واستغفال الناس قاموا بسحق أهم مناهج الإسلام وابتلوا المجتمع الإسلامي ـ إلىٰ اليوم ـ بكل هذه المفاسد والآلام والاضطرابات: فمن هنا نشأت كل المفاسد وهذا هو الموضوع الأهم الذي يجب الانتباه له ولذا فقد ورد الحديث عن مصيبته الكبرىٰ في مقدمة دعاء الندبة الثوري والسياسي.

ومع ذلك فقد جرىٰ الحديث في هذا الدعاء أيضاً عن الأئمة الآخرين وعن المصائب التي تحملوها في سبيل هداية الخلق، وهذا ما تشير إليه العبارة التالية وما بعدها من الدعاء حيث يقول: ـ

«لم يُمتثل أمرُ رسول الله ـ صلى الله عليه وآله ـ في الهادين بعد الهادين. . . . . فقُتل من قتل وسبي من سبي وأقصي من أقصي. . . ».

وهذه العبارة وما بعدها تذكير بمصائب أهل البيت ـ عليهم السلام ـ، وهي تطابق مذهب الشيعة في أن الإمامة هي في أبناء الحسين عليه السلام كقول الدعاء: ـ

«أين الحسن أين الحسين، أين أبناء الحسين. . . أين. . . ».

وإجمالاً فإن فقرات الدعاء بشأن مصائب الأئمة الهداة ـ عليهم السلام ـ وفضائلهم وخصوصيات وعلائم ولي العصر ـ أرواحنا فداه ـ تتضمن جميعاً أفكاراً ومفاهيم سامية ثبتت صحتها بصورةٍ قطعية في الروايات والأحاديث الكثيرة، وواقع الحال هو أن أحد العوامل الموجبة لقوة دعاء الندبة هو قوة

متنه واشتماله علىٰ الكثير من القضايا العقائدية المهيجة للحماس؛ وطبق ما يقوله علماء الحديث فإن المتن قد يكون أحياناً سبباً لتقوية اعتبار السند وأحياناً يكون سبباً لإضعاف السند، وفي مورد هذا الدعاء فإن متنه سبب لتقوية السند.

● توضيح آخر: ـ

إن هذا الدعاء هو للندبة، وشرح مناقب كافة الأئمة سبب للإطالة، وهذا خلاف البلاغة في مثل هذه الأدعية، فليس المراد بيان العقائد الحقة علىٰ نحو التفصيل بل الغرض هو الدعاء والندبة من خلال الإشارة إلىٰ بعض الأمور، ورغم أن بعضها مذكور بصورةٍ موجزة إلا أن القارىء للدعاء يفهم المقصود منها اعتماداً علىٰ معرفته بها وخلفيته الذهنية، لذا فهو عندما يقول «أين الحسن وأين الحسين» يتذكر كافة مصائب هذين الإمامين وتتجسد في ذهنه.

مناقشة الاعتراض الرابع والإجابة عليه

دعاء الندبة وقضية المعراج الجسماني

● **نص الاعتراض:**

كما تقدم فإن الإشكال الآخر يتعلق بقول الدعاء «وعرجت بروحه إلىٰ سمائك» فهي تخالف الإجماع واتفاق الآيات والأخبار الدالة علىٰ جسمانية معراج الرسول الأكرم ـ صلَّىٰ اللَّه عليه وآله ـ، ولهذا فمتن الدعاء ضعيف الأمر الذي يؤدي إلىٰ عدم الاطمئنان بصدوره عن الإمام ـ عليه السلام ـ.

والجواب هو: ـ

إن هذه الجملة ـ عند المتخصصين في هذا الفن ـ محرفة بلا شك، وصحيحها هو «وعرجت به إلىٰ سمائك»؛ ونقدم هنا التحقيقات التي أُجريت بهذا الصدد للقراء والمحترمين: ـ

١ ـ يقول المحدث النوري ـ رحمة الله عليه ـ في كتاب «تحية الزائر» ص ٢٦٠:

«وردت عبارة الدعاء في كتابي مزار محمد بن المشهدي والمزار القديم ـ وكلاهما مؤلفان قبل تأليف مصباح الزائر بفترةٍ طويلة ـ بهذه الصورة التي نقلناها: ـ «وعرجت به إلىٰ سمائك»، وقد رأيتها في بعض نسخ مصباح الزائر بهذه الصورة أيضاً ولكنها وردت في مجموعة من نسخ المصباح ـ ومنها نسخة المجلسي بهذه الصورة: ـ «وعرجت بروحه إلىٰ سمائك»، وعليه يتضح أن ثمة تحريف لها جرىٰ في نسخ المصباح علىٰ أيدي أحد الناسخين كان مبتلياً ببعض الأمراض القلبية والعقائد الفاسدة».

٢ ـ شرح المرحوم الحاج الشيخ عباس المحدث القمي في كتابه «هدية الزائر» (ص ٥٠٦ وص ٥٠٧) كلمة أستاذه المحدث النوري المتقدمة وأيدها.

٣ ـ في النسخة الخطية القديمة والنفيسة من كتاب المزار الكبير للشيخ محمد بن المشهدي التي أشرنا إليها سابقاً ضبطت الجملة علىٰ هذا النحو «وعرجت به إلىٰ سمائك».

٤ ـ وتشهد وتؤيد صحة عبارة «وعرجت به» جملة «وأوطأته مشارقك ومغاربك» الواردة في الدعاء، لأن مفردة «أوطأت» صريحة في جسمانية المعراج ونفس هذا المعنىٰ يؤيده قول الدعاء «وسخرت له البراق» لأن المعراج الروحي لا يحتاج إلىٰ مركب.

٥ ـ ونفس هاتين العبارتين من الدعاء تدلان على أن المراد من العروج ليس الروحي فقط حتىٰ مع فرض صحة نسخة «وعرجت بروحه».

٦ ـ وإضافة إلىٰ الوجه الخامس، نقول وعلىٰ فرض صحة نسخة «وعرجت بروحه»: إن هذه الفقرة لا تصرح بأن المعراج كان روحياً فقط، لأن من المتداول كثيراً في لغة العرب والعجم استخدام لفظ موضوع للجزء ويُراد به الكل كاستخدام الرقبة في التعبير عن الإنسان، ولعل بهذا المعنىٰ تستعمل عبارات من قبيل «روحي لك الفداء» و «جئتك بروحي» كما تستعمل في الفارسية أيضاً مفردة «جان = روح» ويُراد منها ما يشمل الروح والبدن بل وتستعمل أحياناً في خصوص البدن.

● كلام تحقيقي لأحد كبار أساتذة العلم والأدب:

ولتوضيح الموضوع بصورة كاملة ننقل كلام العلامة الشهير الحاج الميرزا أبو الفضل الطهراني «توفي سنة ١٣١٦ هـ. ق» وهو الأستاذ في العلوم العقلية والنقلية ومن مفاخر الأدب والشعر واللغة والبلاغة وقد مدحه الشاعر الكبير حيدر الحلي والسيد محمد سعيد الحبوبي ـ قدس سرهم ـ:
يقول هذا العالم الأديب: ـ

«قد يستخدمون تارةً مفردة الروح بمعنىٰ الجسم مع الروح، بملاحظة الارتباط بين الحال والمحل أو الملابسة، نظير ما يقوله العرب فعلاً مثل: ـ شال روحه أو جرح روحه وهذه الاستعمالات متعارفة في العراق والحجاز، والارتباط هنا صحيح الاستخدام فصيح، وعلىٰ هذا القياس وردت عبارة دعاء الندبة «وعرجت بروحه إلىٰ السماء»، لأن الضرورة قائمة بالمعراج الجسماني والبرهان يؤيدها أيضاً كما هو المقرر في محله»[1].

ثم يقول بعد تحقيقاته في شرح عبارة «السلام عليك وعلىٰ الأرواح التي حلت بفنائك» الواردة في زيارة عاشوراء ـ في بيان أن المراد من الأرواح هم الأصحاب الأوفياء لمولانا أبي عبد الله الحسين ـ عليه السلام ـ، يقول: ـ

«إن نسبة الحلول والإناخة تبدو صحيحة وجائزة لاعتبارات عديدة: ـ الأول أن يكون المراد من الأرواح هو نفس الأجسام المقدسة الطاهرة، إذ تستعمل كلمة الروح بهذا المعنىٰ كما تقدمت الإشارة لذلك، ولأن لأصحابه ـ عليه السلام ـ حياة الخلود فهم ـ بالمقدار المتيقن ـ مصداق حقيقي للمقتول في سبيل الله والله تعالىٰ يقول: ﴿**ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياءٌ عند ربهم يرزقون**﴾،[2] لذا فلا مانع إطلاق صفة الأرواح عليهم هنا في حين أن المقصود هو الأجساد المقدسة، ويؤيد هذا المعنىٰ ما ورد في زيارة جابر «المنيخة بقبر أبي عبد الله»، وعليه يكون المراد من

---

(١) كتاب شفاء الصدور في شرح زيارة العاشور ص ١٠٨ .

(٢) سورة ال عمران / الآية ١٦٩ .

«الرحل » و«الفناء» هو القبر والحائر وقد قال الشيخ المفيد - رضي الله عنه - في كتاب الارشاد: «ولسنا نحصل لهم (أصحاب الحسين) أجداثا على التحقيق والتفصيل إلا أنا لا نشك أن الحائر محيطٌ بهم».

كما أن قبر العباس ـ عليه السلام ـ وإن كان بعيداً لكنه داخل في فناء ورحل سيد الشهداء؛ ويمكن أن يكون المراد هو نفس الحلول الجسماني في أيام الحياة حيث نزلوا في رحله وحلوا في ساحته، وهذا المعنىٰ أنسب مع ظاهر كلمة الرحل والفناء وتشهد علىٰ هذا الاحتمال عبارة الزيارة المروية في كتاب «الأقبال»[1] .

ومحصل الجواب هو: إن هذه الجملة هي طبق النسخ الخطية الصحيحة «وعرجت به» ونسخة «وعرجتَ بروحه» غير ثابتة بل محرفة طبقاً لما أفاده المحدث النوري، ومع التوضيحات الأدبية الدقيقة لصاحب كتاب شفاء الصدور لا تبقىٰ أي شبهةٍ في أن المراد من الروح في هذه الجملة الجسم مع الروح فيمكن جمعها بالكامل مع أدلة المعراج الجسماني، وعلىٰ أي حال لا يخل ذلك أصلاً بصحةِ الدعاء.

ولا يخفىٰ أن ثمة وجه دقيق في تبيان المراد من هذه الجملة أورده العلامة المتبحرِ السيد صدر الدينِ محمد الحسني الطباطبائي في شرحه لدعاء الندبة، وحيث إننا لم نرَ مناسباً إطالة الكلام أكثر من هذا المقدار هنا لذا أعرضنا عن نقله فمن أراد فليراجع هذا الشرح ص ١١٦ .

---

(١) شفاء الصدور ص ١٠٩ .

مناقشة الاعتراض الخامس والإجابة عليه

إمكانية نسبة الدعاء للأئمة - عليهم السلام -

● نص الاعتراض:

أحد الأسئلة أو الإشكالات المثارة بشأن دعاء الندبة هو القائل: ـ كيف يمكن أن يكون هذا الدعاء منسوباً إلىٰ أحد الأئمة وهم كافة كاملون وعقلاء في حين أن إمام الزمان لم يولد بعد والدعاء يخاطبه بـ «ليت شعري أين استقرت بك النوىٰ بل أي أرضٍ تقلك أو ثرىٰ، أبرضوىٰ أو غيرها أم بذي طوىٰ، بنفسي أنت من مغيب لم يخل منا»؟! فهل يُعقل أن يخاطب الإمام السادس أو العاشر أو أي إمام آخر حفيده الذي لم يُولد ولم يغب بعد بقوله أين أنت؟!، وإذا قيل بأن إمام الزمان قد أنشأ هذا الدعاء لنفسه وبكىٰ لفراقه فهذا أيضاً غير معقول إذْ كيف يجهل عليه السلام محل إقامته.

● الجواب:

سبحان الله!

وهل قال أحد أن هذا الدعاء كان يتلوه الأئمة السابقون وأن الإمام السادس أو العاشر كان يخاطب بفقراته صاحب الزمان ـ عليهم السلام ـ أو أنه نفسه كان يخاطب به نفسه ويندب علىٰ فراقه؟!

العلامة المجلسي يقول إن هذا الدعاء مروي بسند معتبر عن الإمام جعفر الصادق ـ عليه السلام ـ ويستحب تلاوته في الأعياد الأربعة، فمن أين يفهم ـ من قوله هذا أو من قول السيد ابن طاووس أو الشيخ محمد بن المشهدي ومحمد بن علي بن أبي قرة والبزوفري ـ، أن الأئمة كانوا يتلونه أو أن صاحب الزمان كان يخاطب به نفسه؟! إن المستفاد من أقوال هؤلاء الأجلاء ليس أكثر من منهج عمل للمؤمنين الذين يعيشون في عصر الغيبة الكبرىٰ وهو أن يتلوا هذا الدعاء في الأعياد الأربعة، فما علاقة هذا الأمر

بتلاوة أو عدم تلاوة أئمة الهدىٰ ـ عليه السلام ـ له؟! هذا أولاً؟

وثانياً: ما المانع من مخاطبة شخصٍ لم يُولد بعد في هذه الدنيا مع أن من المتيقن أنه سيُولد وأن نوره وحقيقة وجوده مخلوقة رغم أنها لم تتعلق بعد بهذا البدن العنصري، وهذه المخاطبة هي من أشخاص لهم ارتباط بتلك العوالم؟!

ألم يخاطب الله تعالىٰ بني آدم قبل وجودهم حسب ما ورد في سورة الأعراف الآيات ٢٦ و ٢٧ و ٣١ و ٣٥؟![1] أو حتىٰ إذا كان البعض موجودين فإن هذه الخطابات العامة تشمل الموجودين وغيرهم جميعاً.

وثالثاً: إن هذا الدعاء هو للندبة وفي مقامها من المناسب استخدام مثل هذه الخطابات علىٰ نحو المجاز، وهو موافق للذوق، فيفرض القائل نفسه كأحد الذين يعيشون عصر الغيبة ويتحرق من فراق وهجران ولي العصر ـ عليه السلام ـ وهو يقاسي الظلم والجفاء من الظالمين، وبناء علىٰ هذا الفرض يوجه هذه الخطابات ويندب لذاك العصر وما سيشهده من صعاب وابتلاءات آتية، وعليه فليس هدفه معرفة مقر إمام الزمان حقاً.

ومثل هذه الخطابات كثيرة في الآثار الأدبية، حيث يعتبر الغائب حاضراً والبعيد قريباً والذي لم يوجد بعد موجوداً، بل وتخاطب فيها غير ذوات العقول والزمان والمكان فيظهرون مشاعرهم ويطفئون نيرانهم الداخلية ويخففون آلامهم الروحية؛ والغرض من أمثال جميع هذه الجمل الواردة في الدعاء هو تعليم الندبة وإبداء المودة لولي العصر وإظهار حالة الانتظار.

إذن فلا يوجد أي مانع ولا يخالف الذوق والعقل أن يكون الأئمة السابقون قد تلوا دعاء الندبة أو أن يكون صاحب الزمان ـ أرواحنا فداه ـ نفسه قد علم هذا الدعاء رغم أننا قد ذكرنا أنه لم يُشاهد أي دليل في مصادر هذا

---

(١) يُراجع تفسير مجمع البيان ج ٤، ص ٤٠٩ وص ٤١٢ و ٤١٥، وتفسير التبيان المجلد ٤ ص ٤٠٧، ص ٤٠٩، ص ٤١٥، ص ٤٢١.

الدعاء علىٰ أن أحد الأئمة أو إمام العصر ـ عليه السلام ـ كان قد تلاه.

نعم، ورد في روايات أخرىٰ عن بعض الأئمة ـ عليهم السلام ـ خطابٌ ودعاء له ـ عجل الله تعالىٰ فرجه ـ مثل رواية سدير الصيرفي التي نقلناها سابقاً، ومثل دعاء الإمام زين العابدين ـ عليه السلام ـ له (عج) في دعاء عرفة، ومثل دعاء الإمام الصادق ـ عليه السلام ـ في تعقيب صلاة الظهر الذي يرويه عباد بن محمد المدائني الذي ذكر أنه تشرف بلقاء الإمام جعفر الصادق ـ عليه السلام ـ في المدينة فرآه وقد انفلت من صلاة الظهر ورفع يديه إلىٰ السماء داعياً بالقول: ـ

«أي سامع كل صوت، أي جامع كل فوت، أي بارىء النفوس بعد الموت، أي باعث، أي وارث، أي سيد السادات، أي إله الآلهة، أي جبار الجبابرة، أي مالك (ملك خ ل) الدنيا والآخرة، أي رب الأرباب، أي ملك الملوك، أي بطاش، أي ذا البطش الشديد، أي فعالاً لما يُريد، أي محصي عدد الأنفاس ونقل الأقدام، أي مَن السر عنده علانية، أي مُبدىءُ، أي معيد، أسألك بحقك علىٰ خيرتك من خلقك، وبحقهم الذي أوجبت لهم علىٰ نفسك أن تصلي علىٰ محمد وأهل بيته وأن تَمُنّ علي الساعة بفكاك رقبتي من النار، وأنجز لوليك الداعي إليك بإذنك وأمينك في خلقك وعينك في عبادك وحجتك علىٰ خلقك عليه صلواتك وبركاتك وعدَهُ، اللهم أيده بنصرك وانصر عبدك وقوِّ أصحابك وصبّرهم وافتح لهم من لدنك سلطاناً نصيراً وعجل فرجه وأمكنه من أعدائك وأعداء رسولك يا أرحم الراحمين».

وعندما سمع عباد بن محمد هذه الأدعية سأل الإمام عن هل أنه دعاها لنفسه فأجاب ـ عليه السلام ـ: «دعوت لنور آل محمد وسابقهم والمنتقم بأمر الله من أعدائهم».

ثم سأل الراوي الإمام الصادق ـ عليه السلام ـ عن علائم ظهورِه ـ عجل الله تعالىٰ فرجه ـ فأجابه علىٰ ما سأل، وقد روىٰ جمعٌ من العلماء ـ كالشيخ الطوسي في كتابه «مصباح المتهجد» ـ هذه الرواية التي يُستفاد منها أن المراد من وصف «الولي» المطلق علىٰ لسان الأئمة ـ عليهم السلام ـ، هو الإمام صاحب الزمان ـ عجل الله تعالىٰ فرجه[1].

(١) يُراجع الباب ٣، الفصل العاشر، من كتاب «منتخب الأثر» للمؤلف.

مناقشة الاعتراض السادس والإجابة عليه

دعاء الندبة وشبهة البدعة

إذا قال قائلٌ: إن دعاء الندبة بدعة لأنه وُجد بعد رسول الله وأئمة الهدىٰ ـ عليهم السلام ـ ثم نُسب إليهم، وأن الذين يبنون «المهدية» ويقرأون للناس هذا الدعاء ويجعلونهم كلاب صاحب الزمان ينجون، هم أهل بدعة وأعداء الإمام، فهل كانت في زمن رسول الله ـ صلَّىٰ اللَّه عليه وآله ـ مباني «المهدية» أو «الزينبية» أو هل كان في الإسلام «الخانقاه» أو الصوامع؟! وهل أن شرف المؤمن أن يصبح كلباً أم إنساناً حقيقياً؟!.

فجوابه هو: ـ

إن البدعة تعني أن يُدخل الإنسان في المناهج الشرعية عملاً من عنده لم تصدر بشأنه أوامر من النبي والأئمة ـ عليهم السلام ـ ولا يشمله عموم أو إطلاقات التعاليم الصادرة عن هؤلاء العظماء؛ ودعاء الندبة هو: ـ

أولاً: ـ وكما تقدم ـ ورد بالخصوص ويوجد اطمئنان بصدوره عن المعصوم ولم يخترعه أحدٌ من عنده، وعلىٰ الأقل فإن الذين يتلونه مطمئنون من صدوره عن المعصوم.

وثانياً: تشمله العموميات الواردة عن المعصومين ـ عليهم السلام ـ بشأن مطلق الدعاء والحمد وذكر الفضائل والمصائب لكونه يتضمن حمد الله علىٰ قضائِهِ وقدره وذكر فضائل أهل البيت ومناقبهم ومصائبهم.

وثالثاً: لو كان دعاء الندبة قد أنشأه شخص من عنده وقرأه فهو ليس بدعة، بل حاله حال الخطبة أو القصيدة التي ينشؤها أحدٌ ويضمنها هذه المفاهيم أو مثل أن يقرأ مقطوعة الخواجة نصير الدين الطوسي في الأئمة الاثني عشر للناس أو يقرأوها هم؛ فمثل هذا لا يخالف سنة النبي الأكرم ـ صلَّىٰ اللَّه عليه وآله ـ وليس بدعة، كما أنه ليس إدخالاً لشيء في الدين بل هو عملٌ بما ورد في الشرع من تعاليم وأوامر تختلف بحسب صورها ومصاديقها

ومظاهرها.

وأما بناء مراكز باسم المهدية والمنتظرية والقائمية فهو أيضاً ـ ومثل بناء الحسينية[1] ـ ليس بدعة، لأننا إذا بنينا داراً لذكر الفضائل والمناقب وسميناه دار الفضائل أو لتلاوة القرآن وتعليم تجويده وسميناه دار التلاوة أو دار الحفاظ، أو بنينا لتعلم وتعليم العلوم الإسلامية والفقه والتفسير والحديث داراً وسميناه مدرسة، أو بنينا مركزاً لمطالعة الكتب وسميناه مكتبة أو دار الكتب، أو أقمنا مركزاً لرعاية الفقراء والمعوزين وجمع الإعانات لهم والأعمال الخيرية وسميناه دار الأيتام أو بنينا دار حضانة أو مستشفى خيرية، وقمنا بذلك قربةً إلىٰ الله تعالىٰ، فكل هذه المشاريع أعمالٌ مشروعة تمثل مصاديق للعمل بتوجيهات الإسلام والتعاليم الدينية وإطاعة الأوامر القرآنية أمثال: ـ ﴿تعاونوا علىٰ البر والتقوىٰ﴾[2].

---

(١) ما يؤيد مشروعية بناء مثل هذه الأبنية لذكر فضائل النبي وأهل البيت عليهم السلام والبكاء علىٰ مصائبهم، هو قيام أمير المؤمنين ـ عليه السلام ـ ببناء «بيت الأحزان» في مقبرة البقيع للسيدة الزهراء ـ سلام الله عليها ـ حيث كانت تأتي بمعية الحسنين عليهما السلام مُنذ الصباح وتبقىٰ فيه للبكاء إلىٰ المساء حيث كان يأتي الأمير عليه السلام ويُرجع تلك المظلومة المحزونة إلىٰ الدار «بيت الأحزان للمحدث القمي ص ٧٣»، وهذا الإجراء جاء بعد وفاة النبي الأكرم (ص) والانحراف الذي سقط فيه المسلمون بعد السقيفة وعزل خليفة الرسول الحقيقي المعين في يوم الغدير وغيره وعدم عملهم بوصايا الرسول الأكرم ـ صلّىٰ اللّه عليه وآله وسلم ـ وتنكرهم للإمامة الحقة وهذا الأمر الذي حرف المسيرة الإسلامية عن مسارها لتحقيق أهدافها الإنقاذية العالمية وبالتالي جر إلىٰ كل المفاسد التي لحقت بالمسلمين والمصائب التي جرت علىٰ المسلمين، وعليه يمكن إدراك أن بناء «بيت الأحزان» مثل حركة سياسية احتجاجية تستهدف تذكير المسلمين وإبقاء جذوة الاعتراض والتصحيح حية في الوجدان الإسلامي، وهذه الصبغة السياسية التصحيحية تمثل الهدف الأساسي لأمثال هذه الإجراءات ومن ضمنها دعاء الندبة، وهذا هو البعد الأساسي فيها الذي يجب عدم الغفلة عنه (المترجم).

(٢) سورة المائدة/ الآية ٢.

﴿ولتكن منكم أمةٌ يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر﴾،[1] ﴿إن الله يأمر بالعدل والإحسان﴾[2]، وأوامر أخرىٰ.

فمجرد عدم وجود مثل هذه المراكز في عصر النبي ـ صلّىٰ اللّه عليه وآله ـ لا يدل علىٰ كونها بدعة؟ نعم إذا كان الهدف لأحد من إقامة مثل هذه الأبنية هو إثارة الفرقة والتشتت والتحزب بين المسلمين وتحقيق أغراض شخصية وفردية والتفاخر والتنافس غير المشروع والاستغلال والحصول علىٰ الجاه والسمعة، فهذا عمل مذموم بلا ريب، وهو بدعة وضلالة إذا كان الهدف صرف المسلمين عن المساجد وإيجاد فرق طائفية متمايزة وإقامة مراسم غير مشتركة وغير واردة في الشرع وقراءة أوراد وأذكار لم ترد في الشرع ـ كذكر الجبرئيلية واليونسية بعدد معين وأمثال ذلك ـ وبناء مراكز مثل «الخانقاه».

إذن فلا ينبغي الخلط بين هاتين الحالتين، والانتباه إلىٰ أن دار الحفاظ ودار الضيافة ودار المعلمين أو دار الوعاظ أو الحسينية أو المهدية تختلف كثيراً عن الخانقاه والصومعة، فالخانقاه مركز لفرقة خاصة تلتزم طريقة معينة وتتبع شيخاً ومرشداً وسلسلة معينة لم ترد في الشرع؛ أما تلك الدور فهي مفتوحة للجميع دون قيد أو شرط.

ومع ذلك، وحيث إن المقام هو مقام بيان الحقيقة، أنبه إلىٰ وجوب حفظ مركزية المساجد فهي بيوت الله وبيوت المسلمين عامة، ووجوب تعاون الجميع في إعمارها بإقامة صلوات الجماعة ومجالس الدعاء والوعظ والتبليغ وتلاوة القرآن وغيرها لكي تُقام الاجتماعات الدينية في المساجد بأبهىٰ صورة وتحفظ منزلة المسجد وموقعيته؛ بل إذا أُقيمت المؤسسات باسم المهدي في المساجد نفسها أو في أروقتها أو أن تُقام المدارس والمراكز التبليغية ويطلق عليها اسم جامع المهدي أو مسجد المهدي أو رواق صاحب الأمر أو مدرسة

---

(١) سورة ال عمران/ الآية ١٠٤.

(٢) سورة النحل / الآية ٩٠.

المهدي أو مكتبة المهدي ويُستفاد منها في قراءة دعاء الندبة أو دعاء كميل أو الأدعية الأخرىٰ، فإن هذه الحالة أنسب وأقرب لإرادته ـ عجل الله تعالىٰ فرجه الشريف ـ، وإضافة لذلك يجب ملاحظة وضع المساجد وطبيعة المناسبات في إقامة مثل هذه المراكز.

أما ما قيل بأن البعض يعتبر نفسه أو الآخرين «كلب الإمام» وأن شرف المؤمن هو أن يكون إنساناً حقيقياً وليس كلباً؛ فالجواب هو: لا أحد يقول إن المؤمن كلب فعبارة أنا كلب الحضرة الإلّهية أو كلب باب بيت النبي أو الإمام لا تعني: ـ أنا كلب؛ فلمثل هذه العبارات معنىً دقيق محبب يدخل ذهن السامع طواعية فلا يعترض علىٰ القائل به أحدٌ ـ سواكم ـ ولا يقول له: لماذا وصفت نفسك بالكلب ولماذا كذبت، بل الهدف هنا من هذه العبارات هو مثل أن كلب الدار لا يهجر صاحبه وحتىٰ لو طرده لا يتوجه لغير بابه ويلتزم الوفاء ويحفظ احترام ولي نعمته ويدافع عن صاحبه وعن داره ويفضل رعايته البسيطة وطعامه القليل علىٰ موائد الآخرين العامرة، فأنا أيضاً مقيم عند بابكم لا أهجرها وأفتخر بحراستها فهي باب دار المحبوب والمقصود؛ ومثل هذا التعبير محبب في العرف وجميل وعاطفي ومهيج واستخداماته كثيرة في أشعار العرب والعجم، أمثال هذه الأشعار: ـ

أعط لقمة خبز لهذا الكلب فهي لا تنقص عطاءَك يا رب،
أيها الملك، إذا لجأ إليك كلب ـ ولأكن أنا الكلب ـ
فحريٌ أن يصبح كلبك أنني كليب فر من السجن وعلق برأسه زهور حبك.

وطوق عنقك بقلادة مدحك الذهبية وأغلق فاه بسلسلة الوفاء.

تعلق أملي بقبولك وهو بلا ثمن ودخلت حظيرة كلابك.

فانظر بنظرة إلىٰ كلبك ولا ترجمه ولا تطرده من بابك.

أو كقول الشاعر: ـ

أنا كلب أصحاب الكهف مقيم علىٰ باب دار الطاهرين.

يصلني نصف رغيف فيبقي نصف الروح في جسدي.

وقد قلت أنا الضعيف في منظومة مناجاة الإمام علي ـ عليه السلام ـ مخاطباً له: ـ

وكفاني فخراً أن أكون كلب زقاقكم[1].

ومع ذلك فنحن لا نقول بأن يكرر الخطباء والمتحدثون مثل هذه الألفاظ في كل مجلس أو قصيدة أو شعر فيخرجوا بذلك عن مقتضىٰ الحال بحكم قواعد البلاغة والبيان.

---

(١) هذا البيت والشواهد السابقة له التي أوردها المؤلف هي بالفارسية وما قدمناه هو ترجمتها النثرية.

مناقشة الاعتراض السابع والإجابة عليه

دعاء الندبة وآية: ﴿واجعل لي لسان صدق في الآخرين﴾

[الشعراء : ٨٤]

● نص الاعتراض:

الإشكال الآخر الذي أُثير بشأن دعاء الندبة هو: إن قول الدعاء بشأن إبراهيم الخليل ـ علىٰ نبينا وآله وعليه السلام ـ: «وسألك لسان صدقٍ في الآخرين فأجبته وجعلت ذلك علياً» تخالف القرآن، فهي افتراءٌ علىٰ القرآن والنبي إبراهيم لأنه ـ عليه السلام ـ وكما ورد في سورة الشعراء الآية ٨٤ ـ دعاء الله ﴿**واجعل لي لسان صدق في الآخرين**﴾ وكان مراده هو أن تقول الأمم المقبلة فيه قولاً حسناً ولا تفتري عليه ولا توجه له التهم التي وجهتها لأنبياء الله داوود وسليمان وعيسىٰ ـ عليهم السلام ـ، وقد استجاب الله دعاءَه، ولذا فجميع الأمم من اليهود والنصارىٰ والمسلمين، توقر النبي إبراهيم وتقدسه وتعتبره محطم الأصنام، وهذا لا يتناسب مع جملة «وجعلت ذلك علياً»، ففي أي موقع من القرآن جعل الله علياً مقصوداً لإبراهيم عليه السلام؟ بل إن هذه الجملة لا معنىً لها أصلاً، نعم المقصود من «علياً» في سورة مريم هو العلو والرفعة لكلمة كافة الأنبياء.

الجواب: ـ

الجملة المذكورة في دعاء الندبة مقتبسة من القرآن وهي دليل علىٰ قوة متنه؛ تدبروا في الآيات ٤٩، ٥٠ من سورة مريم والآيات ٨٣، ٨٤ من سورة الشعراء، ولاحظوا كيف أن دعاء الندبة قد أوضح مضمونها بهذا التعبير اللطيف، والقرآن ودعاء الندبة كلاهما يتحدثان عن حقيقةٍ واحدةٍ ولا يوجد أي خلافٍ بينهما؟

في سورة الشعراء الآية ٨٣ و ٨٤ تنقل عن إبراهيم النبي دعاءَه الله تعالىٰ بهذه الصيغة ﴿**رب هب لي حكماً وألحقني بالصالحين واجعل لي لسان صدقٍ في الآخرين**﴾؛ ويقول في سورة مريم الآيتين ٤٨ و ٤٩ ﴿**فلما اعتزلهم**

وما يعبدون من دون الله وهبنا له إسحٰق ويعقوب وكلاً جعلنا نبياً، ووهبنا لهم من رحمتنا وجعلنا لهم لسانَ صدقٍ علياً﴾.

والضمير «لهم» في الآية كما هو واضح من السياق يعود علىٰ إسحاق ويعقوب وإبراهيم، أي لهؤلاء جعل الله لسان صدق علياً، ولاحظوا الجملة الواردة في دعاء الندبة فهي تتحدث عن نفس مضمون الآيات، ولا يمكن تصور أي تعارضٍ بينهما، فكيف تعتبرونها متعارضة، فحسب هذه الآيات لا يمكن إنكار طلب إبراهيم من الله ولا استجابة الله له.

أنتم تقولون إن المقصود من «علياً» في سورة مريم هو علو كلمة كافة الأنبياء، وذلك لكي تفصلوا بين هاتين الآيتين، فلماذا لا ترجعون ضمير «لهم» إلىٰ حيث يجب إرجاعه إليه حسب سياق الكلام في الآيات؟! ولماذا تفسرون القرآن علىٰ وفق ميولكم وتفسرون معنىٰ جملة الدعاء خلاف معناها لكي تفتعلوا تعارضاً بينهما وتخترعوا دليلاً علىٰ عدم اعتبار دعاء الندبة وتصورون هذه الجملة ـ التي هي في الحقيقة دليلٌ علىٰ كون الدعاء معتبراً ـ دليلاً علىٰ عدم اعتباره؟!

قولوا: المراد من هذه الآيات القرآنية هو أن إبراهيم دعا الله أن يخلّد ذكره بين الأمم القادمة ويجري اسمه طيباً علىٰ ألسنتها، وأن الله قد استجاب له وجعل اسمه وذكره الطيب علياً، وأحملوا علىٰ نفس هذا المعنى الجملة الواردة في الدعاء، فإذا قلتم بأن المراد من الآية «لسان صدق علياً» ليس الإمام علياً ـ عليه السلام ـ، فقولوا مثل ذلك في جملة الدعاء «وجعلت ذلك علياً»، فأنتم مخيرون، ولكن لماذا تفسرون ما ورد في الآية القرآنية بمعنىٰ ثم تعمدوا إلىٰ نفس منطوقه الوارد في الدعاء فتفسرونه بمعنىٰ آخر ثم تقولون إن الدعاء يعارض القرآن؟!

ولماذا تقولون إن المراد من قوله تعالىٰ: **﴿وجعلنا لهم لسان صدقٍ علياً﴾** هو رفعة وعلو كلمة كافة الأنبياء في حين أن سياق الآيات يصرح بأن هذا الجعل هو ميزة وخصوصية لإبراهيم وإسحاق ويعقوب عن الأنبياء

السابقين؟! ألستم بذلك تفسرون القرآن بما يخالف ظاهره؟!

وإضافةً لذلك، وحتىٰ إذا كان الأمر متعلقاً بجميع الأنبياء فما الإشكال في أن يكون المراد هنا أيضاً إعلان استجابة دعاء النبي إبراهيم ـ عليه السلام؟! فهل اللازم أن لا يستجاب هذا الدعاء الإبراهيمي؟!

وعلىٰ أي حالٍ؛ فإما أن تقولوا وفق الصورة المنسجمة بين القرآن والدعاء بالصورة المتقدمة، وإما أن تراجعوا التفاسير وتقبلوا أحاديث وروايات أهل البيت في تفسير القرآن، وتلاحظوا الرواية التي يرويها علي بن إبراهيم القمي عن أبيه إبراهيم بن هاشم عن الإمام الحسن العسكري ـ عليه السلام ـ أنه قال في تفسير الآية: ـ

﴿وجعلنا لهم لسان صدق علياً﴾؛ ـ يعني أميرَ المؤمنين صلوات الله عليه[1].

فإذا استندنا إلىٰ هذا الحديث الشريف في تفسير الآية ـ وينبغي لنا ذلك طبقاً لأحاديث الثقلين والأمان وسفينة نوح ـ وهي أحاديث متواترة وغيرها ـ ففي هذه الحالة تكون جملة الدعاء متوافقة منسجمة بالكامل مع الآية، وبالتالي تكون جملة الدعاء موافقة للقرآن وتفسيره وهذا ما يزيد في اعتبار الدعاء.

إذن يتضح أننا وبأي قولٍ قلنا في تفسير الآية الكريمة المتقدمة فإن نتيجة الأمر تؤيد واقع أن جملة الدعاء مقتبسة من كتاب الله وموافقة له.

---

(١) تفسير الصافي للفيض الكاشاني المجلد الثاني ص ٤٧ وراجع أيضاً تفسير نور الثقلين للحويزي ج ٣، ص ٣٣٩.

مناقشة الاعتراض الثامن والإجابة عليه

القرآن الكريم وجملة «وأوطأته مشارقك ومغاربك»

● نص الاعتراض:

الإشكال الآخر الذي أثاروه بشأن دعاء الندبة هو: إن جملة «وأوطأته مشارقك ومغاربك» الواردة فيه تعارض الآية الأولى من سورة الإسراء التي تذكر أن سيره ـ صلّىٰ اللّه عليه وآله ـ بين المسجد الحرام إلىٰ المسجد الأقصى وليس كافة مشارق الأرض ومغاربها، حيث تقول الآية الكريمة: **﴿سبحان الذي أسرى بعبده من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى﴾**؛ هذا أولاً وثانياً فإن للأرض ـ وليس لله ـ مشارق ومغارب، فالله حاضر في كل مكان ولا مكان له في حين أن قارىء دعاء الندبة جعله ـ تعالىٰ ـ في الوسط وجعل له مشارق ومغارب.

والجواب علىٰ هذا الإشكال هو: ـ

أولاً: إن لفظ المشارق والمغارب في هذه المقامات صريح في أن المراد ليس كافة المشارق والمغارب، مثل قولنا: ـ إن فلاناً سافر في البحر وشاهد الحيوانات البحرية، أو أنه سافر إلىٰ المدينة الفلانية وشاهد أهلها أو أنه شاهد مناظر القارة الفلانية أو بلدكم، فالمقصود هنا هو أنه زار هذه المناطق وله اطلاع علىٰ أوضاع المدينة الفلانية أو هذه القارة أو ذاك البلد.

ويمكن أن يكون المراد في هذه الجملة من الدعاء هو أن الله تعالىٰ قد جال به في المشارق والمغارب، وبالطبع بالمقدار الذي يكون لهذا الإطلاق حسن استخدام ينفي ما يعرض عليه من التوهمات.

ثانياً: إن هذه المشارق والمغارب ليست مشارق الأرض ومغاربها لأن هذه قد اطلع عليها الناس بدرجةٍ أو بأخرىٰ فلا امتياز ـ حينئذٍ ـ للرسول الأكرم ـ صلّىٰ اللّه عليه وآله وسلم ـ بل المراد مشارق ومغارب الأجرام

والكواكب والشموس والمجرات والعوالم التي سيّر الله نبيه ـ صلّىٰ اللّه عليه وآله وسلم ـ فيها، ويمكن أن يكون المراد أيضاً كافة مشارقها ومغاربها لأنه ومثلما يمكن بالإعجاز جعله ﷺ يسير في أكثرها يمكن بالإعجاز أن يشمل سيره جميعها.

وبناءً علىٰ ما تقدم، فإذا كان المقصود من «إلىٰ المسجد الأقصىٰ» في الآية الكريمة هو بيت المقدس، فلا تعارض مع جملة الدعاء لأنها تشير إلىٰ قضية المعراج بعد المسجد الأقصىٰ وتشرح الآيات والأخبار الأخرىٰ.

أما إذا كان المراد من المسجد الأقصى هو الذي في السماء[١] حيث أسرىٰ الله بنبيه ـ صلّىٰ اللّه عليه وآله وسلم ـ إلىٰ هناك، فإن السير في مشارق ومغارب الأجرام الأخرىٰ قد تحقق له ﷺ وتكون جملة الدعاء موافقة لمضمون هذه الآية أيضاً.

وعلىٰ أي حال وبأي نحو فُسرت الآية فهي لا تدل بأي وجه علىٰ عدم وطىء النبي ـ صلّىٰ اللّه عليه وآله ـ للمشارق والمغارب، فلا يمكن افتراض تعارض بين الدعاء والقرآن من هذه الزاوية.

وأما القسم الثاني من هذا الإشكال؛ فإن كل مَن له شيء من الذوق والمعرفة بالأدب ولغة العرب والعجم، يعلم أن هذه الإضافة «مشارقك ومغاربك» لا تعني أن لله مشارق ومغارب، بل المقصود من هذه الإضافة إضافة الشيء لمالكه وصاحبه ومربيه وصانعه وخالقه مثل قولنا «سمائك وأرضك وبحرك وبرّك»، فهذا لا يعني أنها مكان الله بل يعني أنه هو مالكها وربها والمتصرف فيها وخالقها، وحيث إن المشارق والمغارب هي من آيات الله لذا تُضاف إليه، فهو تعالىٰ جاعل ومدبر نظام المشارق والمغارب وخالقها جميعاً، ومن العجيب أن لا ينتبه أحدٌ لهذا المعنىٰ الذي لا يخفىٰ حتىٰ علىٰ العوام.

---

(١) تُراجع كتب التفسير في تفسير الآية المقصودة من سورة الإسراء.

● لطيفةٌ قرآنية:

جملة «وأوطأته مشارقك ومغاربك» مقتبسة من القرآن أيضاً، من قوله تعالىٰ: ﴿رب السمٰوات والأرض وما بينهما ورب المشارق﴾[1]، وقوله تعالى: ﴿فلا أقسم برب المشارق والمغارب﴾[2]؛ وتعتبر هاتان الآيتان وآية ﴿وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الأرض ومغاربها﴾[3] من معجزات القرآن العلمية، لأن كروية الأرض وسائر الكواكب لم تكن قد أُكتشفت بعد في عصر نزول القرآن، وكان التصور السائد آنذاك هو أن الأرض ساكنة ومركز المجرة فلم يكونوا في الأغلب يتصورون لها مشرقاً ومغرباً حقيقياً ولم يكونوا يعلمون بوجود قارةٍ أخرىٰ، في حين أن هذه الآيات تخبر عن مشارق ومغارب حقيقية للأرض ولسائر الكواكب الأخرىٰ وللمنظومات الشمسية وتُعرف بأنه وبفعل كروية الأرض وحركتها حول نفسها تظهر بصورةٍ دائمة ومتوالية ومتعاقبة مشارق ومغارب، لأن شروق الشمس علىٰ أي نقطةٍ من نقاط الأرض يستلزم ـ حقيقةً ـ غروبها عن نقطةٍ أخرىٰ وعليه فلكافة بقاع الأرض مشارق ومغارب حقيقية.

وضمن ذلك تخبر هذه الآيات عن نظام واحد حاكم علىٰ كافة هذه الكرات السماوية وعن مشارق ومغارب للملايين من الكواكب والمنظومات والمجرات السماوية، وتبين أن رب وخالق هذا النظام المحير للعقول، هو رب واحد، وهذه المعاني مبينة في الأحاديث الشريفة أيضاً[4] وقد أخبر عنها أهل بيت الرسالة وهم مفسرو القرآن؛ ولكن ليس هنا محل تفصيل الحديث عن ذلك.

---

(١) سورة الصافات/ لآية ٥.

(٢) سورة المعارج/ الآية ٤٠.

(٣) سورة الأعراف/ الآية ١٣٧.

(٤) راجع الصحيفة السجادية «دعائه عند الصباح والمساء»/ كتاب وسائل الشيعة ج ١، ص ٢٣٧ الباب ١١٦.

مناقشة الاعتراض التاسع والإجابة عليه

دعاء الندبة وعلم النبي والإمام

● **نص الاعتراض:**

الإشكال الآخر المطروح هو: ـ إن دعاء الندبة يقول بشأن الرسول الأكرم ـ صلّىٰ اللّه عليه وآله ـ «وأودعته علم ما كان وما يكون إلىٰ انقضاء خلقك»، في حين ورد في القرآن وفي عدة مواقع ما يعارض ذلك، حيث يقول تعالى: ﴿**يسئلونك عن الساعة، قل إنما علمها عند ربي**﴾[1] أي أن النبي نفسه لا علم له بوقت القيامة؛ ويقول تعالى في آخر سورة لقمان ﴿**وعنده علم الساعة، وينزل الغيث، ويعلم ما في الأرحام، وما تدري نفسٌ ماذا تكسبُ غداً وما تدري نفسٌ بأي أرضٍ تموت**﴾ وعلمُ هذه الأشياء الخمسة منحصرٌ به تعالىٰ وقد أكد الإمام أمير المؤمنين ـ عليه السلام ـ في الخطبة ١٢٨ من نهج البلاغة أن لا علم للنبي ولا لوصيه بها.

ويقول تعالىٰ أيضاً في سورة التوبة[2]: ﴿**ومن أهل المدينة مَردوا علىٰ النفاق لا تعلمهم نحن نعلمهم...**﴾، ويقول في سورة المطففين: ﴿**ما أدراك ما عليون... وما أدراك ما سجين**﴾، ويقول في سورة الأحقاف الآية ٩: ﴿**وما أدري ما يفعل بي ولا بكم، إن أتبع إلا ما يُوحىٰ**﴾، ويقول تعالىٰ في سورة الإسراء: ﴿**وما أُوتيتم من العلم إلا قليلا**﴾، وقد ورد في الآية ٢٤ من سورة الكهف أن جمعاً جاؤوا إلىٰ الرسول وسألوه عن أشياء فقال سأجيب ولم يقل: إن شاء الله، فانقطع عنه الوحي أربعين يوماً لم يستطع رسول الله

---

(١) الآية الكريمة هي: ﴿**يسئلونك عن الساعة أيان مرساها...**﴾ (سورة الأعراف/ ١٨٧) والمعنىٰ المأخوذ من الآية مفهوميٌ وليس منطوقياً واعتبار المعنىٰ المفهومي محل خلاف. ويُلاحظ هنا أن نصوص الاشكالات والاعتراضات مأخوذة من نص أقوال المعترضين وليس طرحاً للشبهات بالمعنىٰ.

(٢) الآية ١٢٦.

الإجابة ولو كان له علم ما كان وما يكون لأجاب، إذن فهذه الجملة من الدعاء تعارض القرآن.

● **الجواب**:

وردت هذه الجملة بلفظها أو ما يشبهه في الكثير من الروايات ويمكن ادعاء تواترها الإجمالي وعليه لا يمكن إنكار صدور هذا المتن عن المعصومين ودلالته علىٰ أن للنبي والأئمة عليهم السلام علمُ ما كان وما يكون ووجوده في دعاء الندبة لا يسبب ضعفه.

يوجد في كتاب الكافي وكتاب الوافي باب تحت عنوان «بابُ أنّ الأئمة عليهم السلام يعلمون علم ما كان وما يكون وأنه لا يخفىٰ عليهم الشيء صلوات الله عليهم» إضافة إلىٰ أبواب أخرىٰ وأحاديث كثيرة في سائر كتب الحديث وهي جميعاً تؤيد عنوان هذا الباب.

ورغم أن قضية علم النبي والإمام هي من المباحث المهمة والمعقدة إلا أن المتخصصين والعارفين بعلوم أهل البيت وبعلوم الحديث قد أوضحوا مختلف أبعادها، وأزالوا ـ في كتب الحديث وكذلك في الكتب المصنفة بخصوص علم الإمام وحدوده[1] ـ وهو التعارض بين الروايات الشريفة وظواهر بعض الآيات القرآنية؛ وكيف يمكن صدور مثل هذه الروايات ـ التي نحن علىٰ يقين من صدورها عن المعصومين ـ عن الإمام ـ عليه السلام ـ وهو أعلم الناس بعلوم القرآن ومقاصده، إذا كانت مخالفة للقرآن.

يُضاف إلىٰ ذلك أن الموارد الخمسة التي توهمتم أن الآية تدل علىٰ عدم تعلق علم الإمام بها، قد ثبت إخبار النبي والأئمة ـ صلوات الله عليهم ـ

(١) مثل كتاب «معارف السلماني بمراتب الخلفاء الرحماني» الذي توجد نسخة مطبوعة منه في مكتبة مسجد المرحوم آية الله العظمىٰ البروجردي ـ قدس سره ـ في مدينة قم المقدسة، وكذلك كتاب «علم الإمام» للشيخ المظفر في مقدمته القيمة للعلامة القاضي الطباطبائي الذي ترجمه للفارسية.

بشأنها وفي روايات كثيرة، بل وقد أخبر الملائكة والأنبياء عن مصاديقها أيضاً طبق نص القرآن كما أخبر الأنبياء السابقون بشأن الأنبياء اللاحقين، كما أن علم الآجال موجودٌ عند ملك الموت؛ لذا يجب القول أنه حتى بالنسبة للآية الكريمة ﴿إن الله عنده علمُ الساعة﴾ يتضح من خلال القرائن أنه ليس لها ذاك النمط من الظهور الذي تصورتموه.

إذن يجب توضيح السؤال عن مفاد وتفسير هذه الآيات لمناقشة التساؤل بشأن هذا الموضوع ـ علىٰ النحو التالي: ـ

● **السؤال:**

بملاحظةِ أن قد ثبت علىٰ نحو القطعِ واليقين وطبق التواريخ الثابتة والأحاديث المعتبرة بين أهل الإسلام وطبق آيات القرآن الكريم، أن الأنبياء والملائكة والأئمة ـ عليهم السلام ـ قد أخبروا عن مصاديق لنفس الموارد المذكورة في الآية المتقدمة: ـ ما في الأرحام، والآجال، ومستقبل الأشخاص؛ إذن ما هو المقصود من هذه الآية وسائر الآيات التي تتحدث ظواهرها عن نفي علم الغيب عما سواه تعالىٰ واختصاصه به؟! وما هو معنىٰ العلم بهذه الإمور بالله تعالىٰ في حين وحسب قول ابن أبي الحديد المعتزلي في شرح نفس الخطبة ١٢٨ (١) التي استشهد بها صاحب الإشكال (شرح نهج البلاغة ج ٢، ص ٣٦٢) ـ أنه تعالى قد أخبر نبيه عن الحوادث المستقبلية كقوله «ستفتح مكة»، وأن النبي قد أخبر وصيه عن مستقبله وغده كقوله «ستقاتل الناكثين الخبر»؟!

● **ونجيب علىٰ ذلك: ـ**

إن هذه الآيات علىٰ قسمين، الأول يشمل الآيات التي يخصص ظاهرها علم الغيب إجمالاً بالله تعالىٰ، وإطلاق وعمومية هذه الآيات خُصص وقُيد بالآية ﴿إن الله عنده علم الساعة﴾ (٢)، وبعد هذا التخصيص الثابت والمعتبر

---

(١) رقم الخطبة هو ١٢٦.

(٢) سورة لقمان / الآية ٣٤.

بحكم قاعدة «القرآن يخصص بعضه بعضاً كما يفسر بعضه بعضاً»، نقول:

إن تفسير الآية يكون صحيحاً بالانسجام والتوافق مع ذاك العلم الضروري البديهي والروايات المتواترة الواردة بشأن إخبار النبي والأئمة ـ عليهم السلام ـ عما يتعلق بهذه الموارد الخمسة، وبعبارةٍ أخرىٰ فإن علم الأئمة ـ عليهم السلام ـ بما كان وما يكون حتىٰ في هذه الموارد الخمسة ثابت ومحرز ولا يمكن إنكاره طبقاً للتاريخ والحوادث والوقائع الكثيرة وهذا ما يؤيده الكتاب والسنة أيضاً.

إذن فتفسير هذه الآيات ـ إذا لم نقل إنها من المتشابهات ـ يكون صحيحاً عندما يوافق ما وقع خارجياً بالفعل، دون أن يخرج عن ظاهر اللفظ والكلام العرفي؟ وهذا التفسير ممكن طبق واحد من عدة وجوه:

الوجه الأول: ـ

أن يكون المراد من علم الغيب المختص بالذات الإلٓهية هو علم الغيب الذاتي وهو قديم وعين الذات وليس بإفاضة وعطاء من أحد، فلا يمكن فرض علم وعالم في عرضه؛ أما المراد من علم النبي والإمام ـ سواءٌ الحضوري منه أو الحصولي الإنشائي ـ هو العلم الذي أعطاه الله تعالىٰ لهم عن طريق الإلهام أو عن طريق وسائط أخرىٰ؛ وهذا هو فرقٌ حقيقيٌ بين علم الله وبين علم المعصوم وعلم كل مطلعٍ علىٰ شيء من الغيب ـ حتىٰ نحن المطلعين على الكثير من الأمور الغيبية من خلال القرآن وأخبار النبي والإمام ـ، فعلمنا ليس ذاتياً وليس عين الذات فهو حادثٌ وليس قديماً، أما علم الله فهو ذاتي وعين الذات وقديم، وبعبارة أخرىٰ فإن علم النبي والمعصوم هو أعلىٰ درجات علم ممكن الوجود أما علم الله فهو علم واجب الوجود.

وهذا الوجه جارٍ بصورةٍ عامة علىٰ جميع هذه الآيات دون أن تكون هناك حاجة إلىٰ تقييدها بالموارد الخمسة، وتؤيد هذا المعنىٰ الآية الكريمة: **﴿عالم الغيب فلا يظهر علىٰ غيبه أحداً إلا من ارتضى من رسول، فإنه يسلك**

من بين يديه ومن خلفه رصدا﴾[1] ؛ وكذلك الآية الكريمة: ﴿**وما كان الله ليطلعكم علىٰ الغيب ولكن الله يجتبي من رسله مَن يشاء**﴾[2] .

الوجه الثاني:

وهو أن يُقال ـ بعد تقييد الإطلاقات (في الآيات القرآنية) بالموارد الخمسة ـ أن علم الله حضوري ذاتي وعين الذات (عموماً) أما علم النبي والإمام فهو حضوري غير ذاتي بالنسبة لغير الموارد الخمسة وحصولي إنشائي بالنسبة للموارد الخمسة.

الوجه الثالث: ـ

أن يكون المراد في آية الموارد الخمسة هو أن العلم بهذه الموارد عموماً وبالنحو الذي يشمل كافة الأفراد والأنواع والمجردات والماديات، مختصٌ بالله، والعلم بذلك يحصل للولي والإمام إلىٰ الحدود التي لا نعلمها؛ وبعبارةٍ أخرىٰ فهذه العلوم بصورتها المطلقة مختصة بالله وهي حاصلة للنبي والإمام بصورتها المحدودة، ويحتمل أن تكون مؤيدة لهذا الوجه الآية الكريم: ﴿**الله يعلم ما تحمل كل أنثىٰ وما تغيض الأرحام وما تزداد وكل شيء**

---

(١) سورة الجن/ الآية ٢٦، ٢٧.

(٢) سورة آل عمران/ الآية ١٧٤، ويحتمل أن يكون الغيب المذكور في هذه الآية هو نفس الغيب المختص بذات الله والذي ليس لأي شخصٍ ـ باستثناء الأنبياء والأئمة ـ استعداد تعلمه دون واسطة، ومقصود الآية هو أن الله تعالىٰ لا يطلعكم علىٰ الغيب دون وساطة الأنبياء، ولكنه يختار من أنبيائِهِ من شاء ليطلعوكم علىٰ عالم الغيب، وإلا فمن المعروف أن كثيراً من الناس يطلعون علىٰ بعض الأمور الغيبية بواسطة حتىٰ الأحلام وأمثالها كما أننا مطلعون علىٰ الكثير من الأمور الغيبية بواسطة الأنبياء، وعليه تكون الآية دليلاً علىٰ وجوب أخذ علم الغيب من الأنبياء.
ويمكن أن يكون المراد في الآية هو أن الله لا يطلع غير الأنبياء علىٰ العلم الغيبي المختص بذاته لا بواسطة ولا بدونها. وبناءً علىٰ هذين الاحتمالين يتم تقييد الآية الكريمة ﴿**إن الله عنده علم الساعة...**﴾ ويرتفع الإشكال بصورةٍ كاملة.

عنده بمقدار﴾[1] .

الوجه الرابع: ـ

وهو، أن نفي العلم بالموارد الخمسة عن غير الله تعالىٰ هو نفي العلم بالذات أي أن هوية وذات غيره تعالىٰ هي الحاجة المحضة والفقر المطلق وهذا لا ينافي أن يحصل علىٰ هذه العلوم عرضياً بإضافة الله تعالىٰ.

الوجه الخامس: ـ

هو، أن يكون المراد من اختصاص علم الغيب بالله هو أن المصداق الواقعي الحقيقي للعلم الذي لا يُتصور فيه جهل بأي لحاظ هو علم الله الذاتي وهويته هي عين العلم وعين الحياة وعين القدرة وسائر الصفات الذاتية الكمالية، مثلما أن الله هو المصداق الواقعي الحقيقي للعالم الذي لا جهل فيه لا من جهة الزمان ولا الرتبة ولا الذات، وهو وحده العالم بالذات والغني بالذات فيما سائر الموجودات بذاتها جاهلة ومحتاجة، وإذا انقطع فيضه سقط جميع العلماء وكافة الموجودات في الجهل التام والعدم المطلق: ـ **﴿قل أرأيتم إن أخذ الله سمعكم وبصركم وختم علىٰ قلوبكم مَنْ إله غير الله يأتيكم به﴾**[2] .

إن كافة الموجودات إنما تصبح عالمة بالوسائل والأدوات المادية والجسمية أو بواسطة الوسائل غير المادية مثل الإلهام وغيره، ولكن الله تعالىٰ عالم بالذات ودون أية وسيلة؛ إذن فنفي العلم عن الممكنات ـ مع قطع النظر إلىٰ الآلات والجوارح والوسائط والوسائل ـ صحيح ويمكننا أن نقول (بهذا اللحاظ): ـ الإنسان ليس بعالم، بمعنىٰ أن العالمية ليس مقارنة للإنسانية، ولكن ليس صحيحاً القول «الإنسانُ أو الممكن عالم» علىٰ نحو حمل هو هو بل وليس صحيحاً طبق حمل «ذو هو» أيضاً علىٰ نحو الحقيقة وبالذات وإن

---

(١) سورة الرعد/ الآية ٨.
(٢) سورة الأنعام/ الآية ٤٦.

كان صحيحاً مجازاً وبالعرض. فنحن بلحاظ أن أوصاف الله عين ذاته وذاته المصداق الواقعي لهذه الصفات نقول: ـ ﴿هو السميع البصير﴾،[1] في حين أن الإنسان سميع وبصير أيضاً ولكن بالواسطة وبالعرض، ونقول أيضاً ﴿هو العليم القدير﴾ ﴿وهو العزيز الحكيم العليم﴾ ﴿عالم الغيب والشهادة﴾، وبهذا اللحاظ تكون هذه الأوصاف منحصرةً بذاته المقدسة، ونفس هذه الأوصاف تُطلق علىٰ الآخرين مجازاً وعلىٰ نحو العرض ونفيها بهذه الملاحظة (الإطلاق) عن كل ممكن، ويصح أن نقول هو السميع البصير لأن المقام هو مقام تعداد صفات الألوهية وصفات واجب الوجود ومقام إظهار فقر الممكن بهويته الإمكانية التي هي العدم المحض.

ورد في الحديث عن هشام بن سالم قال: ـ

«دخلتُ علىٰ أبي عبد الله ـ عليه السلام ـ فقال لي: أتنعت الله؟ فقلتُ: نعم، قال: ـ هات، فقلت: هو السميعُ البصير قال: هذه صفةٌ يشترك فيها المخلوقون، قلتُ: فكيف تنعته؟ قال: هو نورٌ لا ظلمةَ فيه، وحياةٌ لا موت فيه، وعلم لا جهل فيه، فخرجتُ من عنده وأنا أعلم الناس بالتوحيد»[2].

وظاهراً؛ يُستفاد من هذا الحديث أن إطلاق أوصاف السميع والبصير علىٰ ذات الواجب يختلف عن إطلاقها علىٰ ممكن الوجود، لأن إطلاقها على الواجب حقيقي والحمل صحيح، ووجه الصحة هو أن حقيقة الصفة عين ذات الموصوف، فهو حيٌ لا سبيل للموت إليه، ونورٌ وسميع وبصير وعالم من حيث الذات فلا يمكن ـ بأي وجه ـ تصور الظلمة والصم والعمىٰ والجهل فيه وهو حقٌ لا باطل فيه، وواضح أن الأزلي الأبدي والأول والآخر الذي تمام حيثيته هي كامل حيثية الوجود والحياة والعلم والقدرة، ليس في مستوىٰ

---

(١) سورة الأسراء / الآية ١.

(٢) كتاب التوحيد للشيخ الصدوق ص ١٤٦، الباب ١١، الحديث ١٤.

واحد مع الحي القائم بغيره والذي لا تكون صفاته ذاتية؛ لذا فإطلاق أوصاف العالم والبصير والخبير إطلاق حقيقي عليه؛ أما إطلاقها علىٰ غيره فهو بالعرض وعلىٰ نحو المجاز.

الله عالم بالسر والعلن، ونحن أيضاً عالمون بالعلن والمحسوس وذلك بواسطة الحواس الظاهرة، وعالمون أيضاً بالكثير من الخفايا وذلك بواسطة الحواس الباطنة أو بإعلام الأنبياء وإخبارهم بها؛ ولكن صفة عالم الغيب والشهادة لا يصح إطلاقها علىٰ العبد ـ بتلك الحيثية المطلقة علىٰ الله ـ إذن يتضح أن ذلك العلم الغيبي المنحصر بالله وحده هو العلم الذي يستحيل حصوله لغيره، والذي نثبته لغيره ـ وهو العلم الممكن لغيره وسنخيته غير سنخية علم الله ـ فهو واجب الحصول للأفراد الأكمل والأشرف إذ لا بخل في مبدأ الفيض ولأمثال النبي والإمام قابلية تقبله، وقاعدة «العطيات بقدر القابليات» تقتضي تحقق هذا الأمر لهم بالنحو الأتم الأكمل.

نعم، توجد بعض العلوم خارجة بذاتها عن تناول البشر محالٌ حصولها لهم حتى بالإلهام والإفاضة مثل علم ذات الباري تعالىٰ بذاته، وهذه خارجة من مورد البحث ولعل من هذا القبيل استحالة معرفة حرفٍ واحد من الحروف الثلاثة والسبعين للاسم الأعظم، وهذا الحرف مختصٌ بالله تعالىٰ.

إذن فملخص الحديث هو أن العلم المختص بالله المنفي عن غيره هو غير العلم الثابت للبشر، وموضوع النفي غير موضوع الإثبات، وإلا كيف يمكن أن ينفي القرآن والأحاديث الموضوع الموجود فعلاً في الخارج أي نفي وجود علمنا بالأمور الغيبية مثل الجنة والنار والعرش والكرسي والحوادث المستقبلية عن طريق إخبار النبي والإمام.

الوجه السادس: ـ

وهو أن علم النبي والإمام علىٰ نوعين: ـ

الأول: العلم العادي المتحصل عن نفس طرق الحواس الظاهرة والباطنة والذي يحصل للجميع، وهؤلاء العظماء كانوا مأمورين أن يسير

جريان الأمور وتعاملهم عليهم السلام وفق هذا العلم العادي فيتعاملون بطريقة عادية ـ باستثناء موارد معدودة.

والثاني: العلم غير العادي الحاصل لهم عن طريق الإلهام وتحديث الملائكة والوحي وكتاب الجفر وكتاب الجامعة وسائر طرقهم الأخرىٰ، لكنهم لم يكونوا يُسيّروا بهذا العلم الشؤون الدنيوية والأمور المتعارفة إلا استثناءً وعلىٰ سبيل الإعجاز.

والمنفي هو العلم العادي بهذه الأمور الغيبية، وهذا التقسيم لا يجري علىٰ علم الله، فعلمه علىٰ نحو واحد تجاه جميع المعلومات وهو ثابت علىٰ نحو الإطلاق؛ وبعبارة أخرىٰ فإن ما يتعلق به النفي والإثبات في الإطلاقات والمحاورات العرفية بالنسبة للبشر هو العلم العادي إلا أن تكون هناك قرينة تدل علىٰ خلاف ذلك، وفي مورد علم الغيب أيضاً فإن النفي هو العلم العادي، ولذا يمكننا أن نقول: إن لله علمَ الغيب وليس لغيره ذلك، لأنه لا يمكن بالنسبة لله فرض وجود العلم العادي والعلم غير العادي.

الوجه السابع: ـ

وهو: ـ أن المنفي عن الإمام من العلم في مثل تلك الموارد الخمسة هو المعلومات غير المتناهية الواقعية أو العرفية بوصفها غير المتناهي التي لا مصلحة في معرفة الإمام بها ولا كمال له منها، ولذا فهذه العلوم بوصفها غير المتناهي مختصة بالذات الإلهية.

فعليه، يمكن أن يكون المراد هو أن علم النبي والإمام في هذه الأمور الجزئية وموضوعاته المختلفة، سواءٌ الحضوري منه أو الحصولي هو بالمقدار الذي تترتب عليه مصلحة ما، لأن حصوله بصورةٍ مطلقةٍ إما غير ممكن أصلاً وإما أن المصلحة في إفاضته إلىٰ الأمام غير متصورة.

هذه عدة وجوه للجمع (ونفي التعارض) بالنسبة للآيات التي تشير ظواهرها إلىٰ اختصاص علم الغيب بالله تعالى، وبعض هذه الوجوه تحل الإشكال في آيات القسم الثاني، كما توجد وجوه أخرى يجر توضيحها إلىٰ

الإطناب، وأقوى الوجوه وأرجحها هو الأكثر توافقاً وانسجاماً مع رفعة وسمو مقام النبي والإمام، وأكملية وأشرفية وسعة قابلياتهم واستعدادهم لكسب الفيوض الربانية وأشكال الإنعام والإعطاء الإلّهي، وكذلك مع مضامين الأحاديث والروايات المعتبرة.

● آيات القسم الثاني:

وهي ـ كما تقدم ـ تنفي علم الغيب عن النبي والإمام في بعض الموارد الجزئية والخاصة كقوله تعالىٰ: **﴿ومن أهل المدينة مَردوا علىٰ النفاق لا تعلمهم نحن نعلمهم سنعذبهم مرتين ثم يُردون إلىٰ عذاب شديد﴾**[1]، ومثل الآية الكريمة: **﴿قل لا أملك لنفسي نفعاً ولا ضراً إلا ما شاء الله ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسني السوء﴾**[2]، والآية: **﴿وما أدري ما يُفعل بي ولا بكم إن أتبع إلا ما يُوحىٰ إليّ﴾**[3]. والآية: **﴿وما أدراك ما عليون﴾**[4]، والآية: **﴿وما أُوتيتم من العلم إلا قليلا﴾**[5]، والآية: **﴿ولا تقولنّ لشيءٍ إني فاعل ذلك غداً إلا أن يشاء الله﴾**[6]، وحل الإشكال بالنسبة لهذه الآيات ممكنٌ بعدة وجوه إضافةً إلىٰ الوجوه المتقدمة: ـ

الحل الأول: ـ

أن يكون المراد من قوله **﴿لا تعلمهم﴾**، نفي العلم عن النبي قبل إخبار الله به، أو قبل تعلق مشيئته ـ صلّىٰ اللّه عليه وآله ـ بالعلم بموضوع المورد، فهو نفي العلم عنه ففي هذه الرتبة وهي استحالة تحقق العلم بذلك

---

(١) سورة التوبة/ الآية ١٠٢.
(٢) سورة الأعراف/ الآية ١٨٨.
(٣) سورة الأحقاف/ الآية ٩.
(٤) سورة المطففين/ الآية ١٩.
(٥) سورة الاسراء/ الآية ٨٥.
(٦) سورة الكهف/ الآية ٢٣، ٢٤.

الغيب (حسب الوسائل المتعارفة) دون تلقي العلم منه تعالىٰ.

الحل الثاني: ـ

وهو أن يُقال أن جملة **﴿لا تعلمهم نحن نعلمهم﴾** وأمثالها واردة في مقام تعظيم ولإبراز أهميته، إذ إن المتحدث ـ وهو أعظم وأعلم من المُخاطَب ـ ورغم أنه يعلم أن المخاطب مطلعٌ علىٰ الموضوع أيضاً، إلا أنه يستخدم هذه العبارات وأهمية الموضوع مثل أن يقول القائل بهدف تبيان غاية الذم والقبح: ـ أنت لا تدري أو لا تعرف فلاناً فأنا أعرفه؛ وهذا النوع من الاستخدام مجازيٌ في حقيقته.

الحل الثالث: ـ

أن يكون هذا الكلام بحد ذاته مقدمة لإطلاع النبي علىٰ غيب مستقبل هؤلاء وعاقبة أمرهم؛ فيكون المعنىٰ هو: ـ أنت لا تعلم بعاقبة أمرهم، نحن العالمون بها وسنعذبهم سريعاً مرتين. وعليه فهذه الآية وكذلك الآيات من أمثال: **﴿وما أدراك ما عليّون﴾** و **﴿وما أدراك ما القارعة﴾** ليست في مقام نفي العلم بالغيب علىٰ نحو الحقيقة، بل في مقام تعظيم شأن الموضوع ومواقف ومشاهد القيامة لكي يطلع التالون للقرآن دوماً علىٰ عظمة هذا اليوم، ومفاد هذه الكلمات هو أن السماع غير المشاهدة كما يقول الشيخ الطوسي: «كأنك لست تعلمها إذا لم تُعاينها وترىٰ ما فيها من الأهوال».

يُضاف إلىٰ ذلك المنقول عن سفيان الثوري (في مجمع البيان ج ١٠ ص ٣٤٣، والتبيان ج ١٠، ص ٩٤) من أنه يُقال للمعلوم «ما أدراك» ولغير المعلوم «ما يدريك» وعليه لا يبقىٰ شك أن هذه العبارات الواردة في هذه الآيات ليست في مقام نفي العلم بل هدفها إبراز أهمية الموضوع، إذن فهي لا تدل علىٰ نفي علم الغيب عن النبي والأئمة ـ عليه وعليهم السلام ـ هذا إذا لم نقل أنها تثبت هذا العلم لهم.

الحل الرابع: ـ

يحتمل في آياتٍ من قبيل﴿**ولو كنتُ أعلمُ الغيب**﴾، أن تكون مشيرة إلىٰ هذا المعنىٰ؛ لو كنتُ أعلم الغيب بالطرق العادية التي يجوز العمل علىٰ وفقها، لاستكثرتُ من الخير؛ والشاهد علىٰ هذا قول المفسرين إن المعنىٰ في الآية هو: «لا أعلم الغيب إلا ما شاء الله أن يعلمنيه»، والمراد هو: ـ إن علم الغيب لا يحصل لي بالطرق العادية وإلا لعملت بموجبه، في حين أن المعلوم هو العمل بما يعلمه الله بالطرق غير العادية يحتاج إلىٰ إذن خاص لأن العمل به خلاف المصلحة ونقضٌ للغرض.

وبناءً علىٰ هذا الوجه، يتحصل أن المراد والمعنىٰ هو: ـ في هذه الأمور ليس لدي علمٌ عاديٌ وبالنسبة للعلوم غير العادية لستُ مأذوناً في العمل علىٰ وفقها أو أن أخبر أحداً عنها باستثناء بعض الموارد.

الحل الخامس: ـ

فيما يتعلق بمثل الآية: ﴿**وما أدري ما يفعل بي ولا بكم**﴾، أولاً: ـ إن المراد منها أيضاً نفي العلم العادي والذاتي، بقرينة الآيات الأخرىٰ التي تدل جميعاً علىٰ علم النبي بعاقبة الكفار وبقرينة الأحاديث المتواترة الدالة علىٰ علم النبي بمستقبله ومستقبل أهل بيته وكذلك بمستقبل الكفار وحتىٰ أنه كان يعرف مَن الذين سيلقون في قليب بئر بدر ومن الذين سيؤججون معركة الأحزاب ـ كما يُصرح بذلك الإمام علي (ع) في الخطبة القاصعة ـ.

بل إن هذه الآية تدل علىٰ علمه بالغيب لأنه يصرح بأنه بنفسه لا يعلم ماذا سيحدث وما يعلنه إنما هو بالوحي الإلهي، أي أن علمه من مصدر الوحي: ﴿**وما ينطق عن الهوىٰ إن هو إلا وحيٌ يُوحىٰ**﴾[1] أي أن المعنى هو: ـ ليس لدي في الحقيقة علمٌ من عندي، وإنما أتبع ما يُوحى إليّ، ولا أعلن شيئاً مما يُوحىٰ إلي إلا بإذن خاص.

---

(١) سورة النجم/ الآية ٣، ٤.

ولعل الكفار كانوا يريدون الاطلاع علىٰ الحوادث الآتية بواسطة النبي، ويعرفون ما سيجري عليهم من منافع ومضار، ولأن هذا الاطلاع خلاف المصلحة لذا رفض النبي ـ صلّىٰ اللّه عليه وآله ـ طلبهم بهذا البيان الوارد في الآية.

الحل السادس: ـ

فيما يتعلق بالآية: **﴿ولا تقولن لشيءٍ إني فاعلٌ ذلك غدا﴾**، فهذا أمرٌ وتوجيه وما ذكرتموه لم يرد في سورة الكهف ولا يُستفاد من الآية غير التأديب والإرشاد.

● تحقيق حول حديث شريف: ـ

ورد في كتاب «مَن لا يحضره الفقيه» حديث مرويٌ عن الإمام الصادق ـ عليه السلام ـ أنه قال: «للعبد أن يستثني ما بينه وبين أربعين يوماً إذا نسى، إن رسول الله ـ صلّىٰ اللّه عليه وآله ـ أتاه ناسٌ من اليهود فسألوه عن أشياء فقال لهم: تعالوا غداً أحدثكم ولم يستثنِ؛ فاحتبس جبرئيل عليه السلام عنه أربعين يوماً ثم أتاه وقال: **﴿ولا تقولن لشيء إني فاعل ذلك غداً إلا أن يشاء الله واذكر ربك إذا نسيت﴾**[1].

وقد ورد في سيرة ابن هشام حديث[2] طويل بشأن هذا الموضوع خلاف الخبر المتقدم، ويبدو أن مقصود صاحب الإشكال من قوله «ورد في الآية ٢٤ من سورة الكهف» أحد أو كلا هذين الخبرين وقد كتب ما كتب خلطاً أو لغير ذلك، الله العالم؛ وعلىٰ أي حالٍ فالاستدلال بهذا الخبر ليس معتمداً لعدة جهات: ـ

الأولى: إن المستند خبر الواحد ولا حجية له في هذه المسائل لأنها

(١) من لا يحضره الفقيه للشيخ الصدوق ج ٣، ص ٢٢٩/ الحديث ١٠٨١/ ١٢ والآية هي الرابعة والعشرون من سورة الكهف.

(٢) سيرة ابن هشام ج ١ ص ٣٢٠ - ٣٢٢.

ليست فرعية عملية.

الثانية: إن الخبرين متعارضان، فالمذكور في الخبر الأول ورد أن جمعاً من اليهود جاؤوا النبي بهذا الهدف، أما في خبر ابن عباس المنقول في سيرة ابن هشام فالمذكور هو أن مشركي مكة بعثوا لأحبار المدينة وطرحوا مسائل ليسألوا عنها رسول الله ـ صلّىٰ اللّه عليه وآله ـ.

الثالثة: إن خبر أصحاب الكهف كان معروفاً بين النصارىٰ ولم يكن اليهود عالمين به ـ طبق ما كتبه البعض.

الرابعة: لا تنسجم آيات سورة الكهف المتعلقة بالمسائل المطروحة في هذه السورة مع ما ورد في هذا الخبر.

الخامسة: روىٰ ثقة الإسلام الكليني عن الإمام الصادق ـ عليه السلام ـ حديثاً بهذا الشأن بواسطة عبد الله بن ميمون ـ وهو راوي الحديث المنقول في مَن لا يحضره الفقيه عن الصادق (ع) ـ عن أمير المؤمنين عليه السلام، ولم يذكر موضوع مجيء اليهود وسؤالهم[1].

السادسة: روىٰ شيخ الطائفة (الطوسي) عين هذا الحديث عن عبد الله بن ميمون عن الإمام الصادق ـ عليه السلام ـ بنفس لفظ حديث مَن لا يحضره الفقيه وهو: «للعبد أن يستثني ما بينه وبين أربعين يوماً إذا نسىٰ» ولم يضف علىٰ ذلك شيئاً.

ويتضح من المروي في الكافي والتهذيب[2] أن ذيل الحديث المنقول في كتاب مَن لا يحضره الفقيه وتفسير العياشي[3] هو بيانٌ وتوضيحٌ من بعض الرواة وهو مأخوذٌ من رواية ابن هشام فليس له أي اعتبار.

---

(١) كتاب الكافي ج ٧ ص ٤٤٨ الحديث ٦. وفي الكافي حديث آخر تحت رقم (٤) مروي عن الصادق أغلب الظن أنه نفس حديث من لا يحضره الفقيه.

(٢) كتاب التهذيب ج ٨ ص ٢٨١، الحديث رقم ١٠٢٩/٢١.

(٣) تفسير العياشي ج ٢، ص ٣٢٤.

والجهة السابعة: من أين أتيتم بقولكم: إن رسول الله ـ صلّىٰ اللّه عليه وآله ـ لم يعلم الجواب؟! ولماذا لم تقولوا: إنه ـ صلّىٰ اللّه عليه وآله ـ كان ينتظر الوحي للإجابة عليهم؟! ولا تعترضوا بأنه: إذا كان منتظراً للوحي فكيف يمكن أن يكون عالماً بالجواب؟! لأن من الثابت أن القرآن أُنزل علىٰ قلبه ـ صلّىٰ اللّه عليه وآله ـ جملةً ودفعةً واحدة وهذا هو المستفاد أيضاً من بعض الآيات الكريمة: وهذا النزول لا يعارض النزول التدريجي وقد شبهو الأمر بالعلوم التفصيلية بالفعل بعد حصول الملكة، وعلىٰ أي حال فإن هذا المبحث من المسائل النظرية الغامضة ولا يصح الدخول ـ عن غير علم ـ في معترك النزاع والانحياز إلىٰ طرفٍ واحد.

إذن يتضح ويمكن القول باطمئنان أن هذا المقطع (الذيل) من رواية عبد الله بن ميمون ليست من أصل الحديث بل هي شرحٌ وتوضيحٌ كما أن رواية سيرة ابن هشام ضعيفة ولا يصح الاستناد عليها، لذا يبقىٰ لنا ظاهر الآية، وهو لا يدل بأي وجه علىٰ نفي الغيب عن النبي ـ صلّىٰ اللّه عليه وآله ـ.

الحل السابع: ـ

أكثر المخاطبات في القرآن هي علىٰ نحو «إياك أعني واسمعي يا جارة»، وهذا أسلوب أدبي متداول يكون المخاطب شخصاً والمراد من مفاد الخطاب آخر يراد تفهيمه الموضوع، فمثلاً من هذا النمط الآية الكريمة: **﴿وقضىٰ ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحساناً، إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أُف ولا تنهرهما وقل لهما قولاً كريماً، واخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل رب ارحمهما كما ربياني صغيرا﴾**[1]، فالخطاب هنا وإن كان موجهاً للنبي الأكرم ـ صلّىٰ اللّه عليه وآله ـ إلا أن الغرض إفهام الآخرين، فعند نزول الآية لم يكن أيٌ من والديه ـ

---

(١) سورة الإسراء / الآية ٢٥.

صلّىٰ اللَّه عليه وآله ـ علىٰ قيد الحياة لكي تصدق هذه الوصايا علىٰ مورده؛ ولذا يُحتمل أن تكون آيات من قبيل ﴿**ولا تقولن لشيءٍ إني...**﴾، ﴿**وما أدراك ما الحاقة**﴾، وآية ﴿**لا تعلمهم**﴾ وأمثالها نازلة علىٰ وفق نفس هذا الأسلوب.

● حكمة عدم العمل بعلم الغيب:

وإذا سأل سائل: ـ والآن وحيث اتضح تفسير هذه الآيات ـ ضمن الأوجه الأربعة عشر المتينة المتقدمة ـ مع ملاحظة الأخبار المتواترة الدالة علىٰ أن للنبي والإمام علمَ الغيب، وارتفعت الشبهة بصورةٍ كاملةٍ، يُطرح السؤال عن حكمة عدم عمل النبي والإمام بالعلوم الغيبية، وبعبارة أخرىٰ: لماذا كانوا ـ عليهم السلام ـ ومع وجود هذا العلم لديهم، يتعاملون في الأغلب مثل الأفراد العاديين في شؤونهم العادية وكانوا يسألون أيضاً عن بعض الموضوعات؟!

فالجواب: ـ

معلومٌ أن مجرد الاستفهام والسؤال ليس دليلاً علىٰ عدم العلم، لأنه قد يُطرح لمصالح من قبيل توضيح الحقائق وتعليم الآخرين وإتمام الحجة وحكم أخرىٰ، مثلما ورد ـ أحياناً ـ في كلام الله تعالىٰ وهو علام الغيوب كقوله تعالىٰ: ﴿**وما تلك بيمينك يا موسىٰ**﴾[1] أو ﴿**يا عيسىٰ ابن مريم أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين**﴾[2].

أجل ثمة حكم ومصالح في عدم العمل بالعلوم الغيبية منها: أن النبي والإمام قادة الناس ويجب أن يكون عملهم ـ مثل قولهم ـ مصدراً لتربية بني الإنسان وإقامة نظام أمور دينهم ودنياهم، فإذا كانت شؤون حياتهم العادية ـ

---

(١) سورة طه / الآية ١٧.

(٢) سورة المائدة / الآية ١١٦.

عليهم السلام ـ قائمة علىٰ أساس الخوارق والمعجزات وعلم الغيب، فهذه الحالة تنقض الأمر المطلوب ولا يصبح وجودهم وتعاملهم قدوة عملية يقتدي بها الآخرون ويأخذون منها مناهج حياتهم إذ يصبح التأسي بهم ـ عليهم السلام ـ محالاً؛ في حين أن الناس مكلفون بالاقتداء بالنبي بحكم العقل وصريح الأمر القرآني: **﴿ولكم في رسول الله أسوةٌ حسنة﴾**[1].

ولذا فلم يُكلف هؤلاء العظماء ـ عليهم السلام ـ بالعمل طبق علومهم اللدنية في كل مكان، بل كانوا ـ في الأغلب ـ يتعاملون في المحاورات والمسائل والحوائج المتعارفة والعادية علىٰ وفق المجاري والعلوم العادية للبشر ليعلموا الناس من خلال ذلك منهج الحياة الصحيحة ويهدوهم ويقودوهم في مختلف المجالات، ولذا لم يكونوا يعملون طبق علم النبوة والإمامة سوىٰ في موارد خاصة وبالمقدار الذي لا يعارض هذا الهدف، كما أنهم عملهم في هذه الموارد هو بإذن الله وإرادته.

والحكمة الأخرى هي: ـ أنهم لو كانوا يعملون في الموارد العادية بعلم الإمامة ويخبرون عن الغيب في كل مورد، فربما كان ذلك سيؤدي إلىٰ إيقاع البعض في سوء الفهم والغلو بحيث يرفعونهم عن مرتبة الإمكانية ويتوهمون أن علومهم ذاتية وليست مفاضة؛ ومثل هذه الأسئلة والاستفهامات التي كانت تصدر عنهم ـ عليهم السلام ـ، أصبحت سبباً ليعرفهم الناس بالصورة المطلوبة وفي المرتبة التي هم فيها.

وواقع الأمر إن استمرار تعقيد وغموض موضوع علم النبي والإمام واحتياج فهم حقيقته إلىٰ مناقشة دقيقة أدىٰ ـ ورغم وجود الحقائق الثابتة بشأن إخبارهم عن الغيب ـ إلىٰ التأكيد علىٰ مرتبة الإمكانية بالنسبة لهم وتوضيح حدود علومهم اجتنباباً للإقحام في حريم العلم الذاتي لله تعالىٰ ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

---

(١) سورة الأحزاب / الآية ٢١.

نرجو أن تكون أذهان المتسائلين عن علم النبي والإمام قد تنورت بهذا المقدار المختصر في توضيح هذه الحقيقة، ونذكر ضمناً بعدم وجود ضرورة أكثر مما تقدم للبحث في هذا الموضوع سوىٰ لثلةٍ من المتميزين، ويكفي في المقام اعتقاد الإنسان إجمالاً به حتىٰ لو كان لا يعلم تفصيلاته أو لا يستطيع إدراكها.

كما يجب أن لا يؤدي البحث في هذه الموضوعات إلىٰ الصد عن النشاطات العملية وأداء التكاليف، كما لا ينبغي أن تكون مثل هذه المباحث سبباً للتفرقة والتشتت، بل علىٰ الجميع التمسك بالأمر الإلٓهي **﴿واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا﴾**[1] ، **وأن يسألوا الله تعالىٰ إخلاص النية.**

---

(١) سورة آل عمران / الآية ١٠٣.

مناقشة الاعتراض العاشر والإجابة عليه

دعاء الندبة وآية المودة

● **نص الاعتراض:**

ترد علىٰ قول الادعاء «ثم جعلت أجر محمدٍ صلواتك عليه وآله مودتهم في كتابك فقلتَ: قل لا أسئلكم عليه أجراً إلاّ المودة في القربىٰ». عدة إشكالات: ـ

١ ـ إنها معارضة للقرآن، فهي تعارض الآية ١٠٤ من سورة يوسف: **﴿وما تسألهم عليه من أجر﴾**، والآية ٨٦ من سورة ص: **﴿قل ما أسألكم عليه من أجرٍ﴾** وآياتٍ أخرىٰ؛ فكيف يمكن أن يأمر تعالىٰ في آية سورة الشورىٰ ـ آية المودة ـ التي أوردها دعاء الندبة أيضاً، نبيه بأن يقول إن أجري علىٰ الرسالة هو مودة أهل بيتي؟!

٢ ـ إن سورة الشورىٰ مكية، ولم يكن حينئذٍ لا الإمام الحسن ولا الحسين ـ عليهما السلام ـ وأهل البيت، ولم تكن آية التطهير قد نزلت بعد ليأمره تعالىٰ أن يخاطب المشركين بالحديث عن هذا الأجر.

٣ ـ إن المشركين لم يكونوا يؤمنون برسالته أصلاً فكيف يودون أولاده وعترته ويعتبرون هذه المودة أجراً للرسالة؟!

وبناءً علىٰ ما تقدم يكون تفسير آية سورة الشورىٰ ليس أني لا أطلب أجراً سوىٰ مودة قرباي بل إن هذا الخطاب موجه للمشركين أي قل لهم: إنني لا أرجو منكم خيراً فلا ترتكبوا ضدي الأعمال الشريرة، أي قل لهم: إنني لا أطلب منكم شيئاً لتتصوروا أن دعوتي هي لطلب الدنيا فراعوا قرابتي لكم ـ لأن رسول الله كان من أقرباء مشركي قريش ـ ولا تنكروا رسالتي ولا تؤذوني. وهنا اعتبر المفسرون الذين انتبهوا (لمكية) نزول الآية «إلا» بأنها بمعنىٰ «بل» وفي غير هذه الصورة تكون الآية لغواً وهذا لا يصدر عن الله، لذا

فأكثر مفسري الشيعة والسنة فسروا الآية خلاف ظاهرها.

الجواب: ـ

إذا أوجب الرحمن في الوحي ودهم فأين عن الوحي العزيز ذهاب
وأين عن الذكر العزيز مذاهب وأينَ إلىٰ غير الإله إياب

إذا كان القول المتقدم صادراً عن أحد النواصب والخوارج، لما أثار الكثير من التعجب «فكل إناءٍ بالذي فيه ينضح»، ولكن من العجيب الغاية أنه صدر عمن يعتبر نفسه من محبي أهل البيت فيرد قولهم ـ عليهم السلام ـ ويتبع رأي عكرمة الخارجي وأعداء أهل البيت ـ وفي عصرٍ أنصف حتىٰ بعض النواصب واعتبر هذه الآية دليلاً علىٰ وجوب محبة ومودة عترة النبي ـ صلّىٰ اللّه عليه وآله وسلّم ـ.

وابتغاء توضيح هذا الموضوع بالكامل نبحث في الآية من عدة زوايا: ـ

١ ـ محل نزولها.

٢ ـ تفسيرها ومعرفة التفسير الصحيح المنسجم مع الذوق السليم بغض النظر عن الروايات المعتبرة المرتبطة بها.

٣ ـ مقارنة تفسيرها بالآيات الأخرىٰ.

٤ ـ الروايات الواردة عن أهل السنة في تفسير هذه الآية والموافق لإجماع الشيعة.

١ ـ مكان نزول الآية: ـ

أولاً: لا أدري لماذا اعتبر صاحب الإشكال أن جميع آيات سورة الشورىٰ مكية؟! وغض النظر عن الاستثناء الذي ذكره كبار علماء التفسير بشأنها في كتبهم في التفسير وفي أسباب النزول؟! فهو إما لم يراجعها وإما أنه راجعها ولم يشر إليها!! وطرح ـ بصورةٍ قطعية ـ رأيه في موضوع لا يعتبر رأيه حجةً عن الآخرين فيه.

وهنا نحن لا نتطرق إلىٰ تفاسير الشيعة مثل تفسير مجمع البيان ـ وهو غاية في الاعتبار ـ، ونراجع بمقدار تفاسير أهل السنة: ـ

روي في تفسير القرطبي (ج ١٦ ص ٢١) عن قتادة وابن عباس أن سورة الشورىٰ مكية باستثناء أربع آيات نزلت في المدينة تبدأ بالآية **﴿قل لا أسألكم﴾** إلىٰ نهاية أربع آيات.

وذكر الزمخشري في الكشاف (ج ٤ ص ٢٠٨) أن السورة مكية باستثناء الآيات ٢٣، ٢٤، ٢٥، ٢٧، فهي مدنية؛ وهذا ما صرح به أيضاً التفسير الواضح (ج ٢٥، ص ٨)، كما روىٰ تفسير الخازن (ج ٤، ص ٩٠) عن ابن عباس أن هذه الآيات الأربعة التي أولها **﴿قل لا أسألكم...﴾** مدنية.

وصرح المراغي ـ الشيخ الأسبق للجامع الأزهر ـ في تفسيره (ج ٢٥، ص ١٣) أن السورة مكية باستثناء الآيات ٢٣، ٢٤، ٢٥، ٢٦، ٢٧، فهي مدنية.

وروىٰ الشوكاني في فتح القدير (ج ٤، ص ٥٢٤) عن ابن عباس وقتادة أن السورة مكية إلا الآيات الأربع التي تبدأ بـ **﴿قل لا أسألكم...﴾** فهي مدنية. وهذا ما صرح به أيضاً النيسابوري.

وإضافة لذلك، فالمستفاد من الروايات التي رواها جمع آخر من أهل السنة، هو أنّ هذه الآيات الأربعة مدنية وأن الاتفاق غير حاصل بشأن مكية سورة الشورىٰ نفسها، نظير ما رواه الواحدي في أسباب النزول (ص ٢٨٠) وابن سلامة في الناسخ والمنسوخ (ص ٢٧٣)، وعبد الجليل القادري في شرح الناسخ والمنسوخ لابن المتوج (ص ١٧٨)، وفي تفسير البيضاوي (ج ٤، ص ١٢٣) وتفسير أبي السعود (ج ٥، ص ٣٤)، وتفسير النسفي (ج ٤، ص ١٠٥)، وتفسير الطبري (ج ٢٥، ص ٢٥)، والفخر الرازي في تفسيره (ج ٧، ص ٣٨٩)، وابن كثير (ج ٤، ص ١١٢)، وفي ذخائر العقبىٰ (ص ٢٥)، وحلية الأولياء (ج ٣، ص ٢٠١)، ومستدرك الصحيحين (ج ٣، ص ١٧٢)، والدر المنثور وأسد الغابة وكتب أخرىٰ.

إذن فمدنية هذه الآيات قول ثابت وهو مورد الاعتماد ولا معارض له وفق ما ضُبط في هذه الكتب المعتبرة عند أهل السنة، ولا معارض له إذْ لم يرد في مقابله قولٌ خاص بمكية هذه الآيات الأربعة سوىٰ ما قاله البعض من مكية أصل سورة الشورىٰ، وهذا ليس معارضاً ومثله مثل الخاص مقابل العام، يضاف إلىٰ ذلك أن إجماع أهل البيت يثبت صحة القول بمدنيتها ويرد مكية جميع السورة.

وثانياً: يمكن أن تكون الآية أو السورة مكية ولكنها نزلت بعد الهجرة، مثلاً في حجة الوداع في مكة لأن المقصود من المكية ليس تعيين تاريخ النزول بل مكانه وقد شرحوا هذا الموضوع في علم معرفة الآيات المكية والمدنية والكتب المصنفة في هذا الباب[1].

وثالثاً: طبق ما صرح به علماء علوم القرآن فإن بعض آياته نزلت في مكة لكن حكمها مدني، وبعبارةٍ أخرىٰ فإن موردها ومصداقها وجد أو عُرف بعد نزولها مثل بعض الآيات التي نزلت في مكة ثم حصل مصداقها في المدينة، ويصرح هؤلاء أن هذا النحو من التقدم والتأخر قد وقع مراراً «الاتقان ص ٣٧ ج ١».

وبناءً علىٰ هذا، فحتىٰ لو كانت هذه الآيات مكية ـ فرضاً ـ فهي لا تنافي أن يكون المراد مودة ذي القربىٰ وعترة النبي ـ صلّىٰ اللّه عليه وآله وسلم ـ.

٢ ـ تفسير الآية:

نتقل في البداية ما أورده البعض في تفسير الآية ثم نوضح تفسيرها الصحيح نقلاً عن أهل بيت العصمة وهم عدل القرآن المجيد (طبق حديث

---

(١) توجد ثلاثة مصطلحات في مكية أو مدنية السورة والآية يقول أحدها أن المكية هي الآية أو السورة النازلة في مكة حتىٰ لو كان نزولها بعد الهجرة.

الثقلين): ـ

فأحدها هو أن المعنىٰ: ـ أنني لا أريد أجراً علىٰ تبليغ الرسالة وتعليم الشريعة سوىٰ أن تتوادوا فيما بينكم بما يقربكم إلىٰ الله! وهذا التفسير خلاف ظاهر الآية لأن ظاهر «في القربىٰ» هو القرابة الرحمية فلا ظهور لهذا التفسير في هذه الآية الكريمة؛ يُضاف إلىٰ ذلك أنه لا يناسب منطوق الآية ﴿**أم يقولون افترىٰ علىٰ الله كذباً**﴾ المتعلقة بهذا الموضوع حسب ما ورد في التفاسير.

القول الثاني أن المعنىٰ المقصود من الأجر هو: إلا أن تودوني لكوني من قرابتكم فلا تؤذوني ولا تنكروا رسالتي، وهذا التفسير أيضاً ليس صحيحاً لأنه يخصص الآية بقريش دون وجه للتخصيص؛ كما أنه لا ينسجم مع صدر الآية العام في التحدث عن العباد المؤمنين عامة.

يضاف إلى ذلك أن مما يخالف العرف والمنطق أن يصدر مثل هذا الطلب والعرض من شخصٍ يدعي الرسالة وقد ثار ضد كافة عقائد وعادات شعب كامل ويريد إيجاد أكبر الثورات الفكرية والاجتماعية، وليس معقولاً أن يخاطب به المعارضين لدعوته الذين يرونها هدماً لكل ركائز وجودهم والذين يسعون لقمعه واستئصاله دفاعاً عن عقائدهم ومسلكهم الاجتماعي؛ فالنزاع هنا ليس من النوع الذي يمكن للقرابة وتأثيراتها إنهاءه فلا أثر فيه للطلب والرجاء، مثلما أن المشركين لو كانوا قد عرضوا علىٰ الرسول أن يراعي القرابة فيترك دعوته لما كان ـ صلّىٰ اللّه عليه وآله ـ سيوافق فهذا أيضاً عرضٌ غير منطقي.

إذن فهذا التفسير أيضاً ـ الذي اختاره صاحب الإشكال ـ ظاهر الضعف وغاية في الوهن ولا يناسب المنطق القرآني ويدحض نفسه بنفسه.

التفسير الثالث: أن يكون المراد هو؛ أني لا أطلب أجراً علىٰ تبليغ الرسالة بل إن مودة قرابتي هي التي دفعتني للتبليغ؛ وهذا الوجه ذكره سيد قطب في تفسيره (في ظلال القرآن ج ٢٥، ص ٢٨٣)؛ لكنه أضعف وأوهن

من سابقيه لأن علة تبليغ أحكام الله وأداء الرسالة هو طاعة أمر الله وأداء التكليف والرسالة الإلّهية وليس المودة والمحبة الرحمية بحيث يدعوهم لهذه العلة.

تفسير أهل البيت (ع):

يبدو أن الذين طرحوا التفسيرات الثلاثة المتقدمة وروجوا لها باستماتة مدفوعون بدافع إنكار فضيلة أهل البيت ـ عليهم السلام ـ والتعصب الطائفي الباطل؛ أما التفسير الصحيح المعتبر والذي يُعتبر حجة والبعيد عن التفسير بالرأي والأهواء والتعصب فهو تفسير أهل البيت ـ عليهم السلام ـ الذين يجمعون علىٰ أن الآية نازلة بشأن مودة وتعظيم قربىٰ وعترة النبي ـ صلَّىٰ اللَّه عليه وآله ـ، ومن الثابت علىٰ نحو القطع صحة نسبة هذا التفسير عنهم ـ عليهم السلام ـ كالمروي عن أمير المؤمنين والإمام الحسن وزين العابدين ـ عليهم السلام ـ.

وإضافة للشيعة فقد روىٰ أهلُ السنة روايات عديدة لهذا التفسير، ومعلومٌ أنّ ما من أحدٍ أعلم من أهل البيت بعلوم القرآن وشأن النزول وموارده ولا رجحان لقولِ أحد علىٰ قولهم ـ عليهم السلام ـ.

وبناءً علىٰ هذا التفسير فالخطاب عامٌ وموجه للأمةِ كافة وهذا هو الموافق لتفسير الإمام الحسن ـ عليه السلام ـ لآية **﴿ومَن يقترف حسنة﴾** وكذلك لما ورد عنهم في تفسير آية **﴿أم يقولون إفترىٰ علىٰ الله كذباً﴾** وآية **﴿هو الذي يقبل التوبة...﴾**، وعلىٰ أي حال فتفسير أهل البيت ـ طبقاً لمذهب الشيعة وللأحاديث المتواترة عن طرق أهل السنة ـ حجة ومعتبر ولا يجوز تركه، لأن الأمن من الضلالة هو في التمسك بهم ـ حسب حديث الثقلين المتواتر ـ، وقد أثبتنا هذا الموضوع بصورةٍ كاملة في الكتاب الذي صنفناه بشأن حجية أقوال الأئمة ـ عليهم السلام ـ ووجوب الرجوع إليهم في كافة العلوم الإسلامية.

٣ ـ مقارنة تفسير الآية بالآيات الأخرىٰ:

هنا يجب التذكير بأن الاستثناء ـ في هذه الوجوه التفسيرية الأربعة ـ إما منقطع وإما متصل؛ فإذا كان منقطعاً يصبح المعنىٰ أن المودة في القربىٰ ليست أجراً، فتكون «إلا» بمعنىٰ «لكن»، وإذا كان متصلاً وحقيقياً ـ وهو صحيح طبق التفاسير الأول والثاني والرابع ـ فمعناه هو أن المودة في القربىٰ هي مثل الأجر لي ولكنه أجر تعود فائدته علىٰ معطيه وليس مستلمه[1].

وهذا المعنىٰ تدل عليه أيضاً الآية الكريمة **﴿قل ما سألتكم من أجرٍ فهو لكم﴾**[2] لأن ثواب المودة في القربىٰ يعود عليكم أيضاً؛ وهذه مثل توصية الطبيب بالعمل ـ بوصفته، لأن مودة القربىٰ من أركان الإسلام العظيمة والرجوع إليهم واتباعهم وطاعتهم سبب للاستقامة علىٰ أمر الدين وتعلم المعارف والعلوم الإسلامية واجتناب الانحراف عن الصراط المستقيم، وهذا اللطف البياني في هذه الموارد يستهدف زيادة اشتياق المخاطب مثل قوله تعالى: **﴿مَن ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً﴾**[3].

بناءً علىٰ هذا، فهذه الآية ـ وبأي معنىً تم تفسيرها وخاصة التفسير الصحيح وهو أن المقصود نفس مودة عترة النبي ـ صلّىٰ اللّه عليه وآله وسلم ـ لا تتعارض أصلاً مع آياتٍ من قبيل: **﴿قل ما أسألكم عليه من أجر﴾**.

بل إنه وفي نفس دعاء الندبة ورد رفع توهم التعارض بين الآيات، لأن الدعاء ومباشرة بعد قوله: **﴿ثم جعلت أجرَ محمد صلواتك عليه وآله في**

---

(١) علق حضرة آية الله العظمىٰ السيد محمد رضا الگلبايگاني ـ متع الله المسلمين بطول بقائه ـ في أحد المناسبات بخصوص هذا الموضوع بتوضيح لطيف ملخصه: ـ إن مفهوم الآية مثل أن يقول الطبيب الحاذق العارف بالأمراض وسبل العلاج، لمرضاه: إنني لا أريد منكم أجراً علىٰ العلاج سوىٰ أن تعملوا بمنهج العلاج الذي وصفته لكم.

(٢) سورة سبأ/ الآية ٤٧.

(٣) سورة البقرة/ الآية ٢٤٥.

كتابك، فقلت قل لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة في القربىٰ﴾، يقول: وقلت: ﴿ما سألتكم من أجرٍ فهو لكم﴾، [1] وقلت ﴿ما أسألكم عليه من أجرٍ إلا من شاء أن يتخذ إلىٰ ربه سبيلاً [2]﴾؛ فكانوا هم السبيل إليك والمسلك إلىٰ رضوانك.

إذا كان مثير الإشكال قد تدبر في نفس دعاء الندبة، فهل كان سيرىٰ محلاً لإشكاله ويحتمل التعارض أصلاً؟! وإنصافاً فإن في هذه الحقيقة الواردة في الدعاء واستشهاده بالقرآن نكتةٌ علميةٌ لطيفة وهو يوضح لطف تعبير الآيات القرآنية ويؤكد معنىٰ أن نَفْعَ أجر تبليغ الرسالة ـ وهو مودة القربىٰ ـ يعود علىٰ الناس أنفسهم وهو ليس كسائر الأجور التي ينتفع بها مستلم الأجر؛ هذا أولاً وثانياً تأكيده لمعنىٰ أن مودة العترة هي سبيل الله وهي تُطلب من الذين يريدون سلوك هذا السبيل.

يذكر الفخر الرازي في تفسيره (ج ٧، ص ٣٨٩ ـ ٣٩٠) بعد أن يتحدث عن عدة مباحث حول الآية، أن قوله ﴿إلا المودة في القربىٰ﴾ هو من باب قول الشاعر:

ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم	بها من قراع الدار عين فلول

وعليه يصبح معنىٰ الآية: أني لا أسألكم أجراً غير هذا وما هو بأجرٍ في الحقيقة.

٤ ـ روايات أهل السنة: ـ

الروايات والأحاديث الموافقة لعقيدة الشيعة في تفسير هذه الآية، والواردة عن طريق أهل السنة تم تخريجها في جوامعهم الحديثية الكبيرة والمسانيد والمعاجم والتفاسير والتواريخ، ننقل هنا بعضها زيادةً للبصيرة وقرةً لعيون محبي أهل البيت: ـ

---

(١) سورة سبأ / الآية ٤٧.
(٢) سورة الفرقان/ الآية ٥٦.

١ ـ في تفسير أبي السعود (ج ٥، ص ٣٤)، وتفسير النسفي (ج ٤، ص ١٠٥)، والكشاف (ج ٤، ص ٢١٩ ـ ٢٢٠)، والتفسير الواضح (ج ٢٥، ص ١٩)، وتفسير القرطبي (ج ١٦، ص ٢١) وتفسير الفخر الرازي (ج ٧، ص ٣٩٠)، وتفسير ابن كثير (ج ٤، ص ١١٢)، وتفسيرالبيضاوي (ج ٤، ص ١٢٣)، وتفسير النيسابوري، وفتح القدير (ص ٥٣٧)، وذخائر العقبىٰ (ص ٢٥)، وكذلك عن الطبراني وابن أبي حاتم والحاكم وأحمد بن حنبل طبق ما نقله عنهم ابن حجر في الصواعق (ص ١٦٨)، وكذلك الهيثمي في مجمع الزوائد (ج ٩، ص ١٦٨، وج ٧، ص ١٠٣)، وفي إحياء الميت بفضائل أهل البيت ج ٢ نقلاً عن ابن منذر وابن أبي حاتم وابن مردويه في تفاسيرهم، والطبراني في المعجم الكبير، وجماعة آخرين رووا جميعاً عن النبي الأكرم ـ صلّىٰ اللّه عليه وآله وسلّم ـ أنه سُئِل بعد نزول آية المودة عن قرباه الذين أوجب الله مودتهم فأجاب: ـ «علي وفاطمة وابناهما».

وقد نقل هذا الحديث من المعاصرين من أهل السنة عبد الفتاح مكي في كتاب «ملتقىٰ الأصفياء في مناقب الإمام علي والسبطين والزهراء» (ص ١١) والشيخ محمد سعيد الكردي في كتابه «نشر الأعطار المحمدية في الديار الإسلامية» (ج ٢، ص ٥٢).

٢ ـ روىٰ ابن حجر في الصواعق (ص ١٦٨) عن أبي الشيخ وآخرين عن أمير المؤمنين ـ عليه السلام ـ أنه قال: «فينا آلُ حم آيةٌ لا يحفظ مودتنا إلا كل مؤمن؛ ثم قرأ: قل لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة في القربى» ورواه المتقي الهندي في كنز العمال (ج ١، ص ٢١٨)؛ ويعلق صاحب مجمع البيان علىٰ الحديث بأن كميت الأسدي أشار إليه في قوله:

وجدنا لكم في آل حم آية   تأولها منا تقي ومعرب

٣ ـ وفي تفسير الطبري (ج ٥، ص ١٦ ـ ١٧) روىٰ عن سعيد بن جبير وعمرو بن شعيب وفي الدر المنثور عن ابن عباس، وفي تفسير القرطبي عن علي بن الحسين ـ عليهما السلام ـ، وعمرو بن شعيب والسدي أن المراد من

القربىٰ قرابة رسول الله يعني: «الا أن تودّوا في قرابتي وأهل بيتي» ونقله في إحياء الميت ج ١ عن سنن سعيد بن منصور عن سعيد بن جبير.

٤ ـ روىٰ ابن حجر في الصواعق (ص ١٦٨) عن البزار والطبراني عن الإمام الحسن المجتبىٰ ـ عليه السلام ـ أنه قال ضمن خطبة له: «وأنا من أهل البيت الذين افترض الله مودتهم وموالاتهم فقال فيما أنزل علىٰ محمد ـ صلّىٰ اللّه عليه وآله ـ قل لا أسألكم إلخ...».

٥ ـ روىٰ الحاكم في المستدرك (ج ٣، ص ١٧٢) عن الإمام المجتبىٰ ـ عليه السلام ـ أنه قال: ـ «وأنا من أهل البيت الذين افترض الله مودتهم علىٰ كل مسلم فقال تبارك وتعالىٰ لنبيه ـ صلّىٰ اللّه عليه وآله ـ: قل لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة في القربىٰ، ومَن يقترف حسنةً نزد له فيها حسناً، فاقترافُ الحسنة مودتنا أهل البيت»، وروى هذا الحديث ابن حجر أيضاً في الصواعق (ص ١٦٨).

٦ ـ روىٰ الطبري في تفسيره (ج ٢٥، ص ٢٥) بسنده والطبراني كما في الصواعق ص ١٦٨ وغيره عن الإمام زين العابدين علي بن الحسين ـ عليه السلام ـ أنه لما أُقيم أسيراً علىٰ درج الشام، أتاه رجل من أهل الشام فقال له: ـ الحمد لله الذي قتلكم وأهلككم وقطع قرون الفتنة!! فقال له الإمام: ـ أما قرأت القرآن؟ قال: بلىٰ، فقال ـ عليه السلام ـ: هل قرأت آل حم؟ فقال الرجل (متعجباً): قرأت القرآن ولم أقرأها، فقال له الإمام: هل قرأت هذه الآية: ﴿**قل لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة في القربىٰ**﴾، فقال الشامي: وأنتم هم؟!، قال الإمام: ـ نعم.

٧ ـ وروىٰ صاحب حلية الأولياء (ج ٣، ص ٢٠١) بسنده عن جابر أن أعرابياً أتىٰ الرسول ـ صلّىٰ اللّه عليه وآله ـ وطلب منه أن يعرض عليه الإسلام؛ فأمره ـ صلّىٰ اللّه عليه وآله ـ بأن يشهد أن لا إله إلا الله فلا يعبد سواه وأن محمداً عبده ورسوله.

وعندما سأله هل من أجرٍ يطلبه مقابل ذلك؛ فأجاب ـ صلّىٰ اللّه عليه

وآله ـ إلا المودة في القربىٰ.

فسأله الأعرابي: قرباي أم قرباك؛ فقال الرسول: بل قرباي؛ فبايعه الأعرابي وهو يقول: فعلىٰ مَن لا يحبك ولا يحب قرباك لعنة الله؛ وأمن رسول الله ـ صلَّىٰ اللَّه عليه وآله ـ علىٰ دعائِهِ.

وهذا الحديث رواه الزرقاني في شرح المواهب وآخرون (نشر الأعطار المحمدية في الديار الإسلامية ص ٧٠ ـ ٧١).

٨ ـ وروىٰ الطبراني في المعجم الكبير والأوسط عن ابن عباس: أن الأنصار جمعوا مالاً لرسول الله وأتوا به له، فنزلت الآية: **﴿قل لا أسألكم عليه أجراً...﴾** فقرأها عليهم وقال لهم: تودون قرابتي من بعدي فاخرجوا من عنده مسلمين له. وقال المنافقون: ـ إن هذا لشيء افتراه في مجلسه أراد به أن يذللنا لقرابته من بعده؛ فنزلت الآية: **﴿أم يقولون افترىٰ علىٰ الله كذباً...﴾** إلى **﴿وهو الذي يقبل التوبة من عباده﴾** الحديث (مجمع الزوائد ج ٧، ص ١٠٣).

ونظير هذه الرواية مروية في شرح الناسخ والمنسوخ (ص ١٧٩) وفي الصواعق (ص ١٦٨) عن البغوي والثعالبي، ورواها الواحدي أيضاً في أسباب النزول (ص ٢٨٠) وابن سلامة في الناسخ والمنسوخ (ص ٢٧٤ ـ ٢٧٥) في هامش أسباب النزول.

٩ ـ وروىٰ ابن الأثير في أُسد الغابة (ج ٥، ص ٣٦٧) عن حبيب بن أبي ثابت ضمن حديث رواية قريبة من مضمون الرواية المتقدمة، ورد فيها أن شيوخ الأنصار قالوا للإمام علي بن الحسين ـ عليهما السلام ـ: «إن أشياخنا حدثونا أنهم أتوا رسول الله ﷺ، فقالوا: ـ يا محمد ألا نخرج إليك من ديارنا وأموالنا لما أعطانا الله بك وفضلنا بك وأكرمنا بك، فأنزل الله الآية **﴿قل لا أسألكم عليه أجراً...﴾**، فقال شيوخ الأنصار للإمام علي بن الحسين عليه السلام: «نحن ندلكم علىٰ الناس» أن نساعدكم في مواجهة الناس.

١٠ ـ وروىٰ ابن أبي حاتم عن ابن عباس في تفسير قوله تعالىٰ: **﴿ومَن**

يقترف حسنة﴾ أن اقتراف الحسنة مودة آل محمد ـ عليهم السلام ـ. (إحياء الميت ج ٤).

١١ ـ روىٰ ابن حجر في ذيل الآية الخامسة من الآيات النازلة في أهل البيت في الصواعق (ص ١٥٠) ضمن حديثٍ عن الإمام زين العابدين ـ عليه السلام ـ أنه قال ضمن حديثه عن أوصاف أئمة أهل البيت: «الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهّرهم تطهيراً وبرأهم من الآفات وافترض مودتهم في الكتاب».

هذه بعض من الروايات المروية عن طرق أهل السنة، ومَن طلب المزيد يمكنه مراجعة كتاب «خصائص الوحي المبين في مناقب أمير المؤمنين» ـ عليه السلام، وكتاب «العمدة» لابن بطريق وكتاب «الفصول المهمة».

أليس عجيباً مع وجود كل هذه الأحاديث الواردة من طرق أهل السنة، أن يتبنىٰ شخص يعتبر نفسه شيعياً رأي عكرمة الخارجي وأعداء أهل البيت ويترك التفسير المأثور عنهم ـ عليهم السلام ـ ويتناغم مع أقوال أعدائهم الجهلة أو المعاندين أو المتعصبين؟!

هل هناك مَن هو أعلم بالتفسير وأسباب نزول آيات القرآن من الإمام علي بن أبي طالب والإمام المجتبىٰ والإمام زين العابدين ـ عليهم السلام ـ؟!

أليس في كل الأقوال المنقولة عن أصحاب التفاسير وكل الروايات المؤكدة لمدنية تلك الآيات الأربع من سورة الشورىٰ ما يكفي في جعل صاحب الإشكال يتردد في القطع في مكيتها فلا يرد قول أهل البيت؟! وعلىٰ الرغم من كل هذه الروايات الواردة وحتىٰ مع قوله بمكيتها، أليس المناسب وهو في مقام إضعاف دعاء الندبة أن يشير إلىٰ القول المعارض أيضاً فلا ينحاز في الجدال دونما علم.

لا أدري حقاً ما هو الهدف من إثارة هذه الشبهات وإنكار فضائل أهل البيت؟! فدعهم إلىٰ يوم الحساب ليتجرعوا الخجل من رسول الله ﷺ في

محكمة العدل الإلٓهي ويندموا من هذه الأقوال وإنكار فضائل أهل بيته.

وإذا كان البعض يطلقون مثل هذه الأصوات القبيحة من الداخل فإن الآخرين يلتحقون من الخارج بولاء أهل البيت فهذا عبد الباقي العمري الفاروقي الشاعر والأديب المعروف والذي ينتهي نسبه إلىٰ عمر بن الخطاب، تجد ديوانه «الترياق الفاروقي» مملوء بمدائح وفضائل الأئمة الاثني عشر لا سيما مناقب أمير المؤمنين ـ عليه السلام ـ، فيقول في قصيدة «الباقيات الصالحات» بشأن الموضوع مورد البحث: ـ

سل الداعي بن زياد الذي ... إلىٰ أبي أبي يزيد نسبا
المصطفىٰ وأبنتُهُ وصهره ... لمن غدوا جداً وأماً وأبا
وقل تعالوا ندعُ لمّا نزلت ... مع النبي بالعبا مَنْ احتبا
وعهد لا أسألكم عليه من ... أجرٍ لمن به الولا قد وجبا[1]

ويقول الشافعي بنفس الصدد: ـ

يا أهل بيت الله حبكم ... فرضٌ من اللّه في القرآن أنزله
كفاكم من عظيم القدر أنكم ... مَن لم يصل عليكم لا صلاة له[2]

ويقول شمس الدين العربي حول نفس المعنىٰ: ـ

رأيت ولائي آل طه فريضةً ... علىٰ رغم أهل البعد تورثني القربا
فما طلب المبعوث أجراً علىٰ الهدىٰ ... بتبليغة إلى المودة في القربىٰ[3]

وقال آخر: ـ

هم العروة الوثقىٰ لمعتصمٍ بها ... مناقبهم جاءت بوحي وإنزالِ
مناقب في شورىٰ وسورة هلْ أتىٰ ... وفي سورة الأحزاب بعرفها التالي

(١) الترياق الفاروقي ص ٩٥.
(٢) الصواعق ص ١٤٦.
(٣) الصواعق ص ١٦٨.

وهم آل بيت المصطفىٰ ودادهم　　علىٰ الناس مفروضٌ بحكمٍ وإسجال[1]

---

(١) الفصول المهمة لابن صباغ المالكي ص ١١.

مناقشة الاعتراض الحادي عشر والإجابة عليه

دعاء الندبة والعقل

● **نص الاعتراض:**

يقول الإشكال الآخر: ـ إن دعاء الندبة مخالف للعقل لأنه يُقرأ في ألفِ مكانٍ ومسجدٍ ودارٍ، فهل إن إمام الزمان ـ مثل الله ـ حاضر في كل مكانٍ يسمع؟! بالطبع كلا، لأن صفات الله ليست للإمام، فالإمام الحسين ـ عليه السلام ـ يقول: «سبحان الله عن صفاتِ المخلوقين».

وإذا لم يكن حاضراً في كل مكان، فلماذا يخاطبونه في الدعاء قائلين: ـ «يابن السادة المقربين، يابن النجباء الأكرمين» أفلا يحتاج الخطاب إلى مُخاطَب ومُناديٰ؟ وهل هذا المخاطب حاضرٌ في كل مكانٍ؟! نفس الدعاء ينفي ذلك إذ يقول في أواخره «فبلغه منا تحيةً وسلاما» فإذا كان حاضراً في كل مكان لما احتاج الأمر إلى أن يبلغه الله سلامنا لأنه يسمعه؟! وإذا كان الإمام الحسين حاضراً في كل مكان فما معنىٰ أن المَلَك فطرس يبلغه سلامَ شيعته؟! وإذا كان نبي الإسلام حاضراً في كل مكان فما معنىٰ تأكيده في حديثه المروي في الكافي ووسائل الشيعة (باب زيارة النبي من بعيد) علىٰ أنه لا يسمع سلام أمته من بعيد لكنه الملائكة تبلغه له؟! وعليه فإذا كان رسول الله ـ هو أشرف من كافة المخلوقات ـ لا يحضر كل مكان ولا يسمع ما فيه فكيف يكون لخليفته ذلك؟!

وإذا كان الإمام حاضراً في كل مكان، فلماذا روى علماء الشيعة أن الملائكة يحملون إليه صحائف الأعمال، إذْ لو كان حاضراً بنفسه لما احتاج إلىٰ مَن يحمل إليه صحائف الأعمال؛ إذن فاعلم أن من المحال أن يصبح الشخص الواحد اثنين أو ثمانية أو أن يحضر في ثمانية أماكن في آنٍ واحد، وإذا أصبح ثمانية فما هو بواحد، فضلاً عن أن يكون حاضراً في آلاف الأماكن. أليس العقل حجةً؟! إن العقل يقول: ـ محالٌ أن يكون الشيء

الواحد في مكانين في آنٍ واحد فضلاً عن مائة مكان!

نحن نسأل من هؤلاء العامة فنقول: ـ لو كان أمير المؤمنين يحضر كل مكان فكيف قتلوه في مسجد الكوفة؟! وهل أن نبي الإسلام عندما هرب من مكة وذهب إلىٰ المدينة كان في مكة أيضاً؟! وهل الإمام الحاضر في كل مكان، يحضر في حمام النساء والحانات وأمكنة الفساد أم لا؟! إذا كان الحال كذلك فجميع النساء محارم عليه وإذا كان كذلك فلماذا يقرأ صيغة العقد الشرعي ليدخل إحدىٰ النساء في محارمه؟! هل الإمام ـ مثل الله ـ لا تكاليف عليه ولا حلال ولا حرام بالنسبة له؟! إذا كان مكلفاً فلماذا لا ينهىٰ عن المنكر وهو الحاضر في كل مكان؛ ولماذا لا يهدم أمكنة الفساد؟!

الجواب: ـ

أولاً: جميع هذه الإشكالات والاستفهامات ـ وعلىٰ فرض صحتها في الموارد الأخرىٰ ـ لا يصح ورودها بشأن دعاء الندبة، لأنه في مقام الندبة وإبداء الأسف لغيبة الإمام وتدهور الأوضاع وإظهار الشوق للظهور وإقامة الحكومة الحقة، وفي مثل هذا المقام يفرض المتحدث البعيد قريباً والغائب حاضراً بل والميت حيّاً أحياناً، ويبدي الأسىٰ والتأثر، سواءٌ كان المخاطب حاضراً أم لا، يسمع أم لا، مثل النوح والرثاء للميت الذي يُخاطب ويُناديٰ في مائة مكان، ونماذج مثل هذه المخاطبات كثيرة في أشعار الشعراء.

ثانياً: من أين أتىٰ المعترض بقوله إن إطلاع الإمام ووصول خطاب وسلام شيعته عليه يستلزم أن يكون له حضورٌ جسماني حقيقيٌ في كل مكان؟! إن الذي يقول بأن الإمام ـ بإذن الله ـ هو في كل مكان؛ يقصد أنه مطلع علىٰ كل مكان، فالفاصلة الزمانية والمكانية لا تمنع علمه ورؤيته فيصله سلام الناس وخطابهم له سواءٌ بواسطة فطرس المَلَك أو الملائكة الآخرين أو بدون واسطة. فالمطروح هنا ليس كيفية حصول علم وإطلاع الإمام علىٰ سلامنا وخطابنا وليس الفرق بين سلام البعيد والقريب، وواقع هذا الموضوع بأي كيفية كان لا يضر دعاء الندبة ومفاهيمه الحقة لكي تستشهدوا بـ «باب

استحباب زيارة النبي ـ صلّىٰ اللّٰه عليه وآله ـ ولو من بعيد» من كتاب الوسائل وغيره، فهل أنه ـ صلّىٰ اللّٰه عليه وآله ـ وبذكره لإيصال الملائكة لسلام زائريه من بعيد قد نهىٰ عن السلام عليه؟!

إن الهدف والمراد من هذه الأحاديث هو: ـ أن لا تتركوا السلام علىٰ النبي ولا تتوهموا أنه لا يعلم بسلامكم عليه، وبالتالي فمثل هذه الأحاديث مؤيدة جميعاً لمخاطبته والسلام عليه حتىٰ لو كانت كيفية وحقيقة سماعه له وبلوغ السلام له خفية علينا، ولكن لازمة كلا الحالتين التي نستفيدها من الأحاديث هي علم النبي والإمام بالخطاب والسلام عليه.

وفي مثل هذه المفاهيم الثابتة عن طريق النقل يكفي لقبولنا بها وتسليمنا لها هو عدم حكم العقل باستحالتها أو احتمال حصولها ولو علىٰ نحو الإعجاز، فكيف تزعمون أن مثل تلك الأحاديث الشريفة تُضعف دعاء الندبة أو تجعله خلاف العقل؟! إن ما تؤكده هذه الأحاديث هو الأمر: بأن تقوموا ـ في ممات النبي ـ صلّىٰ اللّٰه عليه وآله ـ بنفس الواجبات التي كنتم تقومون بها تجاهه في حياته من قبيل الاستغاثة والتوسل به فهو يطلع عليها.

وإضافةً لذلك يمكن القول أن ظاهر هذه الأحاديث ليس تبيان الفرق بين كيفية الاطلاع علىٰ القريب والبعيد والسماع والبلوغ لكي يستنتج منها أحدٌ ويقول باستحالة الخطاب والسلام من بعيد، بل الظاهر منها هو أنها وردت لدفع توهم الذين يستبعدون النداء والسلام من بعيد بحكم أنهم يعتبرون السلام في مقابل القبر المطهر وفي نفس الروضة المنورة متعارفاً ومسموعاً، فهي تؤكد أنه ـ صلّىٰ اللّٰه عليه وآله ـ يسمع السلام من قرب ويصله السلام من بعيد مباشرة كما هو مقتضىٰ أكثر روايات هذا الباب، وإما بوسيلة الملائكة كما تدل عليه إحدىٰ الروايات الضعيفة، والهدف منها هو أنه يسمع السلام من بعيد وليس المراد أنه لا يسمع من بعد ويسمع السلام من قريب.

وعلىٰ أي حالٍ فإن السماع من بعد أصبح أمراً عملياً في عالمنا

المعاصر، وما من دليل علىٰ أن الفواصل الزمانية والمكانية مانعة من السماع والرؤية في عالم البرزخ، ولا استبعاد لحصوله بالنسبة للروح المقدسة للنبي والإمام وهي ألطف وأكمل بمراتب من أرواح الملائكة، ويتأكد هذا الاستبعاد إذا كان علىٰ نحو الإعجاز.

وثالثاً: أما بالنسبة لما استشهدتم به حيناً بقول الدعاء «فبلغه منا تحيةً وسلاماً» وحيناً بحمل الملائكة لصحائف الأعمال إلىٰ الإمام وعرضها عليه، وحيناً بإيصال فطرس سلامَ الشيعة للإمام الحسين واستدلالكم بذلك علىٰ عدم حضور الإمام في كل مكان؛ فجوابه هو: ـ وهل نقول نحن أن الإمام حاضرٌ في كل مكان؟! إن ما قيل في هذا الباب وهو الصحيح، هو: ـ إن الإمام قادرٌ ـ بإذن الله تعالىٰ ـ علىٰ الذهاب إلىٰ حيثما أراد والاطلاع علىٰ أوضاع شيعته ورعيته ومن تحت ولايته.

أما عبارة «فبلغه منا تحيةً وسلاماً» فلا تعارض هذا المعنىٰ أصلاً، إذْ يمكن أن يكون الإمام عالماً مطلعاً بنفسه علىٰ سلامنا وخطابنا له لكننا مع ذلك نطلب من الله تعالىٰ إبلاغ سلامنا له بهدف قبول السلام ورفع موانعه مثل الذين يسألون الله في محضر النبي أو في حرمه أن يبلغه تحياتهم.

أما بالنسبة لموضوع عرض الملائكة للأعمال عليه وإبلاغ فطرس لسلام الشيعة؛ فالجواب هو: ـ إن هذا أيضاً لا يدل علىٰ عدم علم الإمام مثلما أن وجود الملائكة الحفَظَة ليس دليلاً علىٰ عدم علم الله بأعمال الناس؛ فما نقوله هنا نقوله هناك، فمثل هذه الأمور تستهدف تربية الناس وتنبيههم، وهي في الواقع ألطافٌ إلَهية ولا تدل بأي وجه علىٰ عدم علم الله والنبي والإمام.

رابعاً: أما بشأن قولكم إن حضور الإمام في كل مكان يستلزم أن يصبح الشخص الواحد عدة أشخاص بل عدة آلاف وأكثر، فجوابه هو: إننا لا نقول بحضور الإمام في كل مكان بالمعنى الذي تقولونه، بل نقول: ـ إن من الممكن أن يكون له نوعٌ من حضور الحاضر في أماكن متعددة فترتفع بالنسبة له الموانع الزمانية والمكانية؛ فكيف تقولون بحضور فطرس في كل مكان

وقيامه بإيصال سلام الشيعة في كل مجلس ومدينة إلىٰ الإمام الحسين لكنكم تنكرون حصول هذا المعنىٰ للإمام؟!

سيدي العزيز! إن ملك الموت شخصٌ واحدٌ لا أكثر فكيف يحضر في آنٍ واحد في مكانين أو مائة؟! نحن لم ندخل في عالم الملائكة وعوالم الأرواح وعالم البرزخ لكي نستطيع توضيح حقائق هذه الأمور علىٰ نحو التفصيل، لكننا نعلم بأن من غير الممكن إنكار وجود هذه الأمور بحفنةٍ من الألفاظ والشبهات والاستبعادات؛ وأن القدر الممكن حصوله هو أن البُعد والفواصل الزمانية والمكانية لا تشكل حجاباً بالنسبة للنبي ـ صلَّىٰ اللَّه عليه وآله ـ وللإمام وللكثير من الأرواح وللملائكة؛ ومثلما أنهم كانوا يرون الأوضاع الراهنة علىٰ فاصلة الأربعة عشر قرناً الطويلة، كذلك يمكنهم إذا أرادوا أن يشاهدوا الأشخاص عبر مسافات بعيدة.

كيف يمكنكم أنتم مشاهدة أميركا وأوروبا عبر التلفزيون وسماع أصوات كل مكان عبر المذياع؟! يا سيدي!! قبل إثارة هذه الاشكالات عليكم أولاً أن تفهموا معنىٰ حضور الإمام في الأماكن المختلفة ثم أطلقوا مثل هذه الأقوال، فإذا لم تفهموا فما معنىٰ هذه الإشكالات العامية؟!

إذا كان قد قيل لكم قبل قرن أنه في القرن القادم سيصبح ممكناً لبني الإنسان رؤية بعضهم البعض من مسافات بعيدة ويحضرون في كل مكان ويتحدثون فيما بينهم عن بعد، لقلتم إن هذه خرافات وأساطير مخالفة للعقل، أما الآن فتدركون أن مثل هذا الحكم ناشىءٌ عن الجهل وعدم الاطلاع!!

أنتم تزعمون أن من غير الممكن حضور الإمام في كل مكانٍ في آنٍ واحد فما قولكم بشأن رؤيتكم ورؤية الملايين في كل مكانٍ لشخصٍ واحدٍ عبر شاشة التلفزيون، وهل أصبح هذا الشخص الواحد مليون شخص؟! هل

سمعتم برنامج «جام جهان نما»[1] فما المانع أن يكون الباطن الملكوتي للإمام مثله؟! فيكون في مسجد الكوفة ويستشهد فيه ويكون مطلعاً علىٰ أقصىٰ أرجاء العالم؟!

هل تظنون أن قولنا بحضور الإمام في كل مكان يعني ذهابه لحمام النساء أو ـ والعياذ بالله ـ مراكز الملاهي والفساد؟! فهل أن الإنسان يفعل كل عملٍ يستطيع فعله؟! وهل نحن نقول برفع التكليف عن الإمام؟!

إن الإنسان يضطر إلىٰ الضحك دونما اختيار من أقوالكم غير الموزونة التي تفوهتم بها عن جهل بشأن مثل هذه الحقائق السامية العميقة ويتعجب من طيرانكم الجاهل في اقتحام هذه الموضوعات.

---

(١) اسم برنامج إذاعي بالفارسية يطلع المستمعين على أوضاع مختلف نقاط العالم.

مناقشة الاعتراض الثاني عشر والإجابة عليه

معنى جملة «يابن الطور والعاديات»

● **نص الاعتراض:**

من الموارد الأخرىٰ التي اعتبروها مخالفة للعقل في دعاء الندبة قوله: «يابن يَس والذاريات... يابن الطور والعاديات»، فقالوا إنها تعني: ـ يابن يس والعواصف ويابن جبلِ الطور والأفراس السريعة؛ وأضافوا أنها إهانة لمقام الإمام السامي فضلاً عن مخالفتها للعقل فهو ليس ابن جبل الطور والأفراس السريعة فكيف لا يستحي الشيعة من قراءة مثل هذه العبارات.

وإذا قال قائل إن هذه العبارات هي مثل قول السجاد «أنا ابن مكة ومنىٰ أنا ابن زمزم والصفاء»، نقول كلا ليس الحكم واحد، لأن كل من يعيش ويكبر في مدينةٍ أو بلدةٍ معينة يُنسب إليها فيُقال للقمي ابن قم وللكاشاني ابن كاشان؛ ولأن السجاد أو أباه وجده كبروا في المدينة ومكة وزمزم والصفا، يمكن أن يقول مثل ذلك، أما بالنسبةِ لإمام الزمان فالحال ليس كذلك فلم يكبر لا هو ولا أبوه ولا جده في جبل الطور لكي يُنسب إليها؛ إضافة لذلك كيف نتعامل مع نسبته إلىٰ العاديات والذاريات؟! علىٰ أي حال نحن لا نتجرأ علىٰ توجيه مثل هذه الإهانة لإمام العصر من أجل دعاءٍ لا مصدر له.

الجواب:

لو كنت قد تعلمت الفحش والسباب لأجبت؛ ولكن ألا تستحون من كتابة مثل هذه الجُمل وتعتبرون الشيعة فاقدين للحياء؟! علىٰ أي حالٍ أقول فقط: ـ

إنه خلط عجيب غريب، أو مغالطة عجيبة خالية من الذوق، أن تطرحوا بهذه الصورة عبارات بكل هذه الفصاحة والبلاغة التي يخضع لها كل بليغ ويدركها كل عارفٍ بالمعاني.

يا سيدي!، إن كل من «الطور» و «العاديات» و «يٓس» و «الذاريات» و «طه» هي أسماء لسور قرآنية؛ والقول هنا مثل قولنا يا أبناء القرآن يا أبناء الإسلام، يا أبناء سورة التوحيد، يا أبناء الصلاة، فكلها صحيحة وموافقة للذوق السليم والمقصود منها: أيها المتربون بتربية القرآن وسورة التوحيد والإسلام والصلاة؛ والمراد في الدعاء هو هذا أي يابن سورة يٓس وسورة الذاريات وسورة العادات ويابن سورة طه والآيات المحكمات.

إنكم باعتراضكم مثل الذي لم يقرأ القرآن أصلاً ولم يسمع بأسماء السور، لذلك تفسرون هذه العبارات البليغة بهذا التفسير الخاطىء؛ وإلا فمن ذا الذي يشك بمعانيها أو حتىٰ يحتمل المعنىٰ الذي فسرتموها به؟!

إن معنىٰ هذه العبارات ليس غير مخالف للقرآن وحسب بل إنه منسجم معه بالكامل، ومَن هو أولىٰ من الأئمة ـ عليهم السلام ـ وهم سلالة الرسول ـ صلَّىٰ اللَّه عليه وآله ـ بمثل هذه الخطابات؟! لا أعتقد بوجود شخصٍ واحدٍ ـ ومهما كان تفكيره منحرفاً ـ يفسر هذه الجمل بمثل تفسيركم لها.

وعلىٰ أي حال؛ فإن كنتم لا تفهمونها ولا تجرأون علىٰ قولها، فنحن والآخرون نرددها بصوتٍ عالٍ ونمدح الإمام بها وبمعانيها السامية الفياضة.

مناقشة الاعتراض الثالث عشر والإجابة عليه
دعاء الندبة والكفر والشرك

إذا قال قائل: ـ إن دعاء الندبة كفر وشرك لأن دعاء غير الله شرك وأنتم تدعون الإمام فيه وتخاطبونه ابتغاء قضاء حوائجكم. . . إلخ.

فالجواب هو: ـ لقد مرت علىٰ موت ابن تيمية (توفي ٧٢٨) ٦٦٤ عاماً قُدمت خلالها الأجوبة الاستدلالية البرهانية علىٰ الشبهات التي أثارها هو وأتباعُهُ الذين تحولوا إلىٰ مثيرين للفتن ومسببين لقتل الكثير من النفوس وإثارة التفرقة وأدوات بيد الاستعمار؛ وقد تم تصنيف مئات الكتب من قبل أهل السنة والشيعة أوضحت بطلان أفكار هذه الفرقة؛ وقد أخذ أتباع ابن تيمية بالتوجه الآن نحو الاعتدال والانتباه إلىٰ ما أنزله أسلافهم من خسائر جسيمة بالإسلام، وأخذوا يدركون أن تهم الكفر والشرك وغيرها التي كانوا يوجهونها للإسلام ناشئة من التحجر والتعصب الطائفي الباطل أو من الإثارات والمؤامرات السياسية؛ فلا أدري بعد كل هذا ما هو سبب عودة ظهور هذه الإثارات ومن أي مصدر استعماري تستلهم تحركاتها، وما الهدف من بدئهم بترديد هذه الشبهات مع دعوىٰ الالتزام بعقائد الشيعة؟!

إذا قلنا إنها ظاهرة جديدة فالجميع وحتىٰ أطفال شيعة الحجاز والقطيف يعرفون جواب هذه الشبهات؛ وقد تصدىٰ في القرن الأخير علماء كبار من أمثال الشيخ كاشف الغطاء والسيد محسن الأمين وهم من مفاخر علماء الإسلام للرد عليها واتضحت قضية الشفاعة والتوسل والدعاء وكافة حدودها وثغورها.

أخبرونا ما هي علاقة هذه الآيات **﴿فلا تدعوا مع الله أحداً﴾**[1] و **﴿قل**

(١) سورة الجن/الآية ١٨.

إنما أدعو ربي، ولا أشرك به أحداً﴾[1] و **﴿إن الذين تدعون من دون الله عبادٌ أمثالكم﴾**[2] و **﴿مَن أضل ممن يدعون من دون الله مَن لا يستجيب له يوم القيامة وهم عن دعائهم غافلون﴾**[3]؛ بدعاء الندبة ومخاطبة إمام العصر؟!

في الإجابة نقول:

أولاً: قلتُ سابقاً إن مخاطبة الغائب في مقام إظهار الحب والتألم من الفراق وأمثالها، أمرٌ عرفي وذوقي ليس المراد منه الخطاب الحقيقي بل الدافع إليها إبداء الأسىٰ والأسف؛ وعليه فدعاء الندبة ليس كفراً ولا شركاً حتىٰ وفق رأي مثير الإشكال لأن المخاطبة هنا دافعاً أو معنىً آخر مستخدماً.

وثانياً: من المؤكد أن الدعاء المنهي عنه في الآيات الكريمة هو نمط خاصٌ وليس مطلق دعاء الغير، فالمراد حتىٰ طبق قولكم ليس الأدعية اليومية المتعارفة؛ وبناءً علىٰ هذا نقول؛ إن المستفاد من هذه الآيات ـ والذي تؤيده الكثير من الآيات والأخبار والروايات ـ هو أن دعاء الغير المنهي عنه والذي يعتبر شركاً هو أن دعاء غير الله بعنوان أنه مستقل في تصرفه ونافذ أمره في أسباب ومسببات الكائنات ومالك لأمور الدنيا والآخرة، أي بعنوان أنه في موقع عرضي مع الله تعالىٰ أو أنه فاعل إلىٰ جواره وشريك له وبعنوان أنه خالق ورازق وقاضي الحاجات.

أما إذا اعتبرنا شخصاً بأنه مقربٌ لله ومسلطٌ من قبله تعالىٰ علىٰ نظام الأسباب فندعوه؛ في حين إذا لم يكن له مثل هذا القرب عند الله تعالىٰ ولم تُعط له مثل هذه القدرة والتسلط فإطلاق الشرك علىٰ دعائِهِ ـ وإن كان صحيحاً علىٰ نحو المجاز ـ إلا أنه قد لا يكون صحيحاً علىٰ نحو الحقيقة؛ نعم هذا العمل افتراءٌ واختراع ومصداق لـ **﴿ما أنزل الله بها من سلطان﴾**[4]؛ ولكن

(١) سورة الجن/ الآية ٢٠.
(٢) سورة الأعراف/ الآية ١٩٤.
(٣) سورة الأحقاف/ الآية ٥.
(٤) سورة الأعراف/ الآية ٧١ وسورة يوسف/ الآية ٤٠ وسورة النجم/ الآية ٢٣.

إدخال الشيء الذي ما أنزل الله به من سلطان في الشيء الذي أنزل الله به سلطان؛ أمرٌ محرمٌ لكنه ليس شركاً حقيقاً وكونه كفراً لا يتحقق إلا أن يؤدي إلى إنكار الضروري وفي غير هذه الحالة فهو بدعةٌ وحرام.

وعليه؛ فليس كفراً ولا حراماً أن يدعو الإنسان شخصاً مثل الأنبياء والأولياء الذين نعلم بقربهم الخاص في الحضرة الإلّهية وباستجابة دعائهم وقد اتضح ـ من خلال صدور الكرامات والمعجزات ـ تسلطهم بإذن الله علىٰ نظام الأسباب كما يتحدث القرآن بشأن عيسىٰ ابن مريم حيث يقول: ﴿**إني أخلقُ لكم من الطين كهيئةِ الطير**...﴾[1]؛ فإذا دعا الإنسان مثل هؤلاء لتيسير عمله وحل مشكلته فعمله هذا ليس كفراً ولا حراماً فضلاً عن أن يطلب منه أن يسأل الله قضاء حاجته مثل فعل الحواريين عندما طلبوا من عيسىٰ ـ علىٰ نبينا وآله وعليه السلام ـ أن يدعو الله أن ينزل مائدةً كما ورد في الآية الكريمة: ﴿**هل يستطيع ربك**...﴾[2] فدعا عيسىٰ وأُنزلت المائدة.

وهنا هل تقولون: ـ ألم يستطع الحواريون أن يسألوا الله ذلك؟! وهل أن دعاء الله يستلزم وجود واسطة وشفيع؟!

والحاصل أن الاستشفاع والتوسل بالأنبياء والأولياء ـ المتيقن من قربهم في الحضرة الإلّهية وتسلطهم بإذنه تعالىٰ علىٰ نظام الأسباب ـ ليس شركاً ولا كفراً لا في حياتهم ولا بعد مماتهم؛ بل تصرح برجحان ذلك الآية الكريمة: ﴿**ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاؤوك، فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسولُ لوجدوا الله تواباً رحيماً**﴾[3].

وحتىٰ نسبة بعض الأفعال الإلّهية الخاصة إليهم كشفاء الأمراض، ليست كفراً إذا كان الناسب يؤمن بأن الله وحده الشافي والخالق والرازق، لأن إيمانَهُ هذا هو قرينةٌ حالية علىٰ أن هذه الإطلاقات والنسبة هي علىٰ نحو

---

(١) سورة آل عمران/ الآية ٤٩.
(٢) سورة المائدة/ الآية ١١٢.
(٣) سورة النساء/ الآية ٦٧.

المجاز ونظائرها كثيرة في كلام العرب والعجم؛ مثل: «أنبت الربيع البقل»، فإذا قال المادي هذا القول حُمل علىٰ المعنىٰ الحقيقي فهو كفر، ولكن إذا قال الموحد حُمل علىٰ المعنىٰ المجازي لأن مثل هذا الشخص لا يؤمن بغير الله فاعلاً في الوجود أو يؤمن بأن غيره فاعلٌ بإذنه تعالىٰ مثل: **﴿إني أخلقُ لكم من الطين كهيئةِ الطير فأنفخ فيه فيكون طيراً بإذن الله وأُبرىء الأكمه والأبرص وأُحيي الموتىٰ بإذن الله﴾**[1] .

وواضح أن مثل هذه الإطلاقات صحيحة؟ والموحدون يعتبرونها جائزة وفي نفس الوقت الذي يتوسلون فيه بالأنبياء والأوصياء ـ سواءٌ خلال وجودهم في هذا العالم أو رحيلهم إلىٰ العالم الآخر ـ، لا يعتبرونهم مستقلين في التصرف في عرض الله تعالىٰ وشركاء له بل إنهم يرونهم عمال الله العاملين بإرادته تعالىٰ.

وخلاصة الحديث هنا هي أن دعاء الأنبياء والأولياء لهذه المقاصد من قبل الموحد ـ سواءٌ في حياتهم في الدنيا أو بعدها ـ لا ارتباط له بالكفر والشرك؛ فكيف يمكن نسبة هذا الدعاء وبعض التعبيرات المتعارفة بين الموحدين تجاه الأنبياء والأولياء، إلىٰ الكفر مع وجود آيات في القرآن المجيد من قبيل: **﴿فارزقوهم منه﴾**[2] ، و **﴿ولو أنهم رضوا ما آتاهم الله ورسولُهُ وقالوا حسبنا الله سيؤتينا الله من فضله ورسوله﴾**[3] ، و **﴿وما نقموا إلا أن أغناهم الله ورسوله﴾**[4] ؟!

وأما خبر «الدعاء مخ العبادة» فلا يدل علىٰ أن مطلق دعاء الأفراد عبادة فهو لذلك شرك وكفر؛ لأنه إذا كان المراد به مطلق دعاء الأفراد، لوجب ـ يقيناً ـ أن يكون المراد من العبادة هنا ليس معناها الخاص، لأن بعض أقسام

---

(١) سورة آل عمران/ الآية ٤٩.
(٢) سورة النساء/ الآية ٨.
(٣) سورة التوبة/ الآية ٥٩.
(٤) سورة التوبة/ الآية ٧٤.

دعاء الأفراد مثل دعاء زيد وعمرو وبكر ليس عبادةً لهم، فيجب أخذ الدعاء (في الحديث) بالمعنىٰ اللغوي للعبادة وهو التذلل والخضوع.

وإذا لم يكن المراد من الدعاء مطلق الأفراد، يصبح المعنىٰ ـ بالمقدار المتيقن ـ دعاء المدعو في نهاية التذلل والخضوع وطلب كفاية المهمات وقضاء الحوائج منه بنظرة كونه فاعل مستقل وقادر مطلق وبالذات والمالك والقاضي الحقيقي للحوائج؛ وكل مَن دعا مخلوقاً علىٰ وفق هذه الصورة فد عبده لذا فهو كافرٌ ومشركٌ؛ أما إذا دعا بغير هذه الصورة بل ليكون واسطة وشفيعاً أو دعاه لكونه مسلطاً بأمر الله ـ مثل تسلط عيسىٰ علىٰ شفاء المرضىٰ وإبراء الأكمه والأبرص بإذن الله ـ فليس في ذلك عبادةً له وبالتالي ليس كفراً ولا شركاً.

وأما ما كتبتموه من أن: ـ الأفضل أن لا تطلعوا الآخرين علىٰ ذنوبكم وأن الله ستار العيوب وما من رسولٍ ولا إمام مثله في رأفته ورحمته، وإن من الجهالة وسوء الطالع أن يهمل أحدٌ قوله تعالىٰ ﴿**أدعوني أستجب لكم**﴾[1] و ﴿**واسألوا الله من فضله**﴾[2] **ويقابله بالقول: كلا يجب أن أدعو عبدك!**

فجوابه هو: يبدو أنكم لم تقرأوا القرآن، فالله الذي يقول: ﴿**أدعوني أستجب لكم**﴾ يقول أيضاً ﴿**ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاؤوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله تواباً رحيما**﴾[3]. وهذه الآية ظاهرة في التصريح بأن من الجدير بالعاصين ـ سواء كانوا قد أذنبوا في السر أم في العلن ـ أن يستغفروا الله بأنفسهم ويأتوا الرسول ليستغفر لهم هو أيضاً؛ وهذا هو أيضاً دعاء لله وسؤال من فضله وغاية الأمر أنه يكون تارةً دون واسطة وأخرى عبر واسطة وهو مناسب وفي محلة كلا الحالتين.

وإذا كان قولكم صحيحاً وكان مثل هذا الدعاء كفر وشرك؛ لما أجاب

---

(١) سورة غافر/الآية ٦٠.
(٢) سورة النساء/ الآية ٣٢.
(٣) سورة النساء/ الآية ٦٤.

يعقوب النبي بنيه بقوله ﴿سوف أستغفر لكم ربي إنه هو الغفور الرحيم﴾(١) عندما جاؤوه طالبين منه أن يستغفر لهم ﴿يا أبانا استغفر لنا ذنوبنا إنا كنا خاطئين﴾(٢)، فلو كان منطقكم الباطل صحيحاً لقال لهم يعقوب: ـ استغفروا الله بأنفسكم فمن الجهل وسوء الطالع أن يقول الله: ﴿ادعوني أستجب لكم﴾، وأنتم تأتوني لتجعلوني واسطة فتقولون بذلك كفراً وشركاً!!

فهل نبي الله أعلم بالأمر أم أنتم؟!

يا سيدي العزيز! لماذا تخلطون الأفكار وتشوشون الأذهان وتسببون الأذىٰ دون مبرر؟ وأي فائدة تحصلون عليها من هذه المغالطات والخلط؟!

أيها القراء المحترمون! إن لهذه الشبهات جذوراً مغرضةً قديمة وكانت أيدي الاستعمار أيضاً دوماً خلق إثارتها وتأييدها؛ ورغم ذلك فإن أفكار مسلمي هذا العصر لم تعد تتقبل شيئاً من هذه المغالطات فلا من مشتري لبضائع هؤلاء المتلونين؛ نعم هؤلاء يعرضون نفس هذه الأقوال أحياناً بأغطية ومصطلحات جديدة وكأنها أفكار جديدة ولكن سرعان ما تظهر بواطنها وتتضح غاياتهم التخريبية؛ فدعواتهم مصداق لقوله تعالىٰ: ﴿كسرابٍ بقيعةٍ يحسبه الظمآن ماءً حتىٰ إذا جاءَه لم يجده شيئاً﴾(٣).

ومع ذلك فإذا أردتم الاطلاع علىٰ سوابق هذه الدعوات والردود علىٰ أقوال هذه الفرق فيمكنكم مراجعة الكتب المصنفة بهذا الخصوص ككتاب «كشف الارتياب» للعلامة المجاهد السيد محسن الأمين قدس سره ـ.

---

(١) سورة يوسف/ الآية ٩٧ ـ ٩٨.
(٢) سورة يوسف/ الآية ٩٧ ـ ٩٨.
(٣) سورة النور/ الآية ٣٩.

مناقشة الاعتراض الرابع عشر والإجابة عليه

دعاء الندبة وتجميد النشاطات الإسلامية

● **نص الاعتراض:**

الإشكال الرابع عشر هو: ـ إن قراءة مثل هذه الأدعية سببٌ لتجميد النشاطات الإسلامية وخمود الأفكار وتخديرها، والإبعاد عن الجهاد والسعي لتحقيق المقاصد الإصلاحية وتبليغ رسالة الإسلام؛ وقارىء دعاء الندبة يقنع نفسه به وبدلاً عن التحرك والسعي والجهاد لا يقدم سوىٰ البكاء والنحيب.

الجواب:

نحن أيضاً نوافقكم في لزوم أن لا يحولوا مثل الأعمال إلىٰ أمور سلبية بل يجب الاهتمام بأبعادها الحقيقية الإيجابية؛ ومع الأسف فقد سُجن الدين في إطار الاستفادة السلبية والسياسية الخاصة لأسباب عديدة أهمها الجهل والأيدي الاستعمارية الخائنة، ففي الوقت الذي يقومون به بضرب أبعاده الإيجابية والكثير من جوانبه الأساسية والحساسة، يقومون في المقابل بإدخال بعض جوانبه (ذات الظاهر السلبي) بهدف تحقيق أغراضهم السياسية الخبيثة؛ ومثل هذا العمل يصور الدين منهجاً سلبياً متخلفاً في مقابل الآراء والتيارات الأخرىٰ؛ إضافةً إلىٰ أنه يحجب الأنظار عن حقيقة قيمة الدين وعظمته.

والدعاء أيضاً ليس منبعاً للجمود والخمود والعزلة والرهبانية ولا ينبغي استغلاله لتحقيق هذه الأهداف، بل لقوة الروح والأعصاب والنشاط والأمل والتحرك والسعي.

والوقوف في مرحلةٍ معينة هو إحدىٰ الحالات الخطيرة التي تذمها تعاليم الدين والعلم والأخلاق، فالإنسان في هذا العالم مثل المسافر الذي يسير باتجاه مقصد معين ويطوي المنازل نحوه، فإذا توقف سيره في أحدها لم يصل إلىٰ المقصد، وليس هناك حدّ معين يتوقف عنده في شعب الكمال

والعلم والأخلاق والإيمان والصناعة وغيرها، فالإنسان يستطيع دائماً التقدم فيها؛ وتدعو التعاليم والمناهج الإسلامية الإنسان دوماً إلىٰ المزيد من التقدم والكمال ولا توقفه في أي مرتبةٍ من مراتب عبادة الله وأعمال الخير؛ وما دام حياً عليه أن يتقدم ويكتسب الكمال ويترقىٰ، فالوقوف في مرحلة من مراحل الترقي والتكامل هو بالتالي بداية التراجع.

والمسلم لا يستطيع الجلوس والقعود عن التحرك لتحقيق أهداف الإسلام لأنها لم تتحقق بعد؛ وبنو الإنسان لم يتحرروا بعد، والعدالة الاجتماعية لا زالت غير مقامة والتمايزات الطبقية والعنصرية والقومية وحتىٰ الإقليمية والقطرية تعتصر البشرية، ولا زال الأقوياء متسلطين علىٰ الضعاف، وأفق العالم في ظلمات الظلم والجور، ولا زالت الفحشاء والمنكرات رائجة والنساء ألعوبة بأيدي الشهوات والأهواء الدنية وهن حبيسات قيود جديدة.

لا زال الشرك وعبادة الأوثان البشرية قائمة منتشرة بصور شتىٰ ولا زال الأرقاء الفاقدون لشخصياتهم والثقة بها يتخضعون لحد الركوع أمام أفراد مثلهم أو دونهم علماً وكفاءةً، فيشجعونهم بهذا الخضوع علىٰ المزيد من الاستكبار والظلم والاستبداد.

ولا زالت أحكام الله غير حاكمة للمجتمعات البشرية، بل وكل المفاسد والمعائب في ازدياد مستمر، والمسلم ـ لا يستطيع في مثل هذه الأوضاع والأحوال ـ أن يقنع نفسه بالوقوف والسكوت والاكتفاء بقراءة الدعاء والندبة والبكاء؛ فيترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ويقعد؛ فليس الدينُ هذا أصلاً، والعبادات والصلاة والصوم والدعاء والذكر والمناجاة لا تؤدي إلىٰ اعتزال الأعمال الاجتماعية والسياسية وما يؤثر في حفظ عظمة الإسلام وتقوية شوكة المسلمين.

إن الإسلام دين الدنيا والآخرة والسياسة والمعنويات فلا يمكن عزله عن الدنيا والسياسة والقضايا الاجتماعية وإدارة كافة الأمور والشؤون؛ لذا

فإنجاز الواجبات الاجتماعية وتطبيق أحكام الدين علىٰ شؤون الدنيا والعمليات الاقتصادية والسياسة والتجارة والتعليم والتربية هو جزءٌ من جوهر الدين، فيما أن حبس الإسلام في محيط العبادة والدعاء هي خيانة للإسلام وتعاليم القرآن المجيد.

إذن لا يمكن للمسلم ـ وفي أي مرتبة كان أو في أي مجالٍ يعمل ـ أن يعتبر مرتبته هي نقطة الوصول إلىٰ المقصد وتحقيق الأهداف ونهاية مسيرته، بل يجب أن يتابع سيره ويطوي المزيد من المنازل ويكون دائماً في حركة متواصلة وبنفس تكرار العمل بالفرائض الدينية والدعاء وعبادة الله يرتقي من درجة إلىٰ أخرىٰ، فالمنهج هو منهج السير والحركة والترقي والمجاهدة.

ونحن نؤيد ـ مع الأسف ـ أن التحرك بين المسلمين قليلٌ اليوم ولم يتحركوا لقرونٍ طبق ما أراده منهم الإسلام؛ ولذلك تخلفوا في ميادين حياتهم وضيعوا أمجادهم الإسلامية وحولوا الكثير من البرامج والمناهج (الشعائر) الدينية إلىٰ جسد بلا روح؛ في حين يجب أن تكون جميع الشعائر الإسلامية والمساجد وصلوات الجماعة ومجالس التعزية والمواعظ والخطابة والدعاء، مراكز للتحرك والنهضة وتعبئة الطاقات الإنسانية[1] .

وهذه الجنبة السلبية التي تفترضون وجودها في دعاء الندبة يمكن أن تظهر في عمل ولدىٰ كل شخصٍ وهي حالة خطيرة؛ فالطالب الجامعي الموهوب والموفق الذي يحصل علىٰ درجات جيدة؛ يمكن أن يؤدي انبهاره بوضعه الفعلي الجيد إلىٰ منع ترقيه وتقدمه بدرجة أكبر ويجعله يجمد، كذلك

---

(١) يلاحظ هنا أن الكتاب قد ألفه الشيخ الصافي قبل قرابة الثمانية أعوام من انتصار الثورة الإسلامية في إيران والنهضة الخمينية والصحوة الإسلامية التي أخذت تسير في طريق تحقيق ما يدعو له المؤلف وقد تحولت هذه المراكز العبادية السياسية إلىٰ منطلقات ومراكز للصحوة والنهضة بالفعل وهي آخذة بالتنامي والانتشار في مختلف أرجاء العالم الإسلامي، والمستقبل لها ولا شك فهي تمهد في الحقيقة لظهور الإمام المهدي المنتظر (عج) عملياً وتفجر ثورته الإلٰهية العالمية الكبرىٰ، (من المترجم).

حال المجتمع السائر في مسيرة التقدم والرقي إذْ يمكن أن تصيبه هذه الحالة الخطيرة لنفس السبب؛ وعليه فهذا الخطر يمكن أن يتهدد كل شخص ومجتمع ودولة ولا اختصاص له بالدعاء والعبادة، ومحال أن لا يكافح الإسلام ـ وهو دين التحرك والحركات التقدمية ـ هذه الحالة التي تعتبر بداية الزوال والانقراض.

يجب أن تقوم أدعية الندبة وكميل والسِمات أيضاً بتعبئةِ قوانا الإنسانية، وبالحيلولةِ دون تسلط الضعف واليأس والأفكار المثبطة والمخربة، لتصبح منطلقات لتقوية الأرواح؛ فمجالس الأدعية يجب أن تكون مراكز أساسية لتربية المجاهدين الأقوياء، وتبليغ وتنمية الأفكار الإسلامية بين المسلمين خاصةً الشباب.

وإضافة لثمار وآثار الدعاء العامة، يمتاز دعاء الندبة ـ وبتأثير المفاهيم السامية التي تتضمنها عباراته القيمة ـ بأنه ينبه القارىء له إلىٰ مجموعة وسلسلة من الأهداف الإسلامية غير المتحققة والتي يجب تحقيقها، كما أنه يعدد المفاسد الاجتماعية؛ فهو دعاء وندبة ولكن الإنسان ضمن الندبة علىٰ الأوضاع الاجتماعية الفاسدة والسياسات الظالمة والانحرافات والنقائص والتمايزات والضلالات، لا يستطيع أن يضع إحدىٰ يديه علىٰ الأخرىٰ، فالذي يتألم ويندب علىٰ كل ذلك لا يمكن أن يختار الصمت تجاه كل هذه المفاسد ولا يقوم بما يقدر عليه ابتغاء المجيء بنظام اجتماعي يتحلىٰ بالإسلامية.

إن عبارات دعاء الندبة تهيج المشاعر وتهز القارىء وتجعله ينفر من الكفر والشرك والعدوان والظلم والجور، وكل هذه آثار إيجابية؛ فإذا كانت استفاداتنا نحن منه ـ ومن الشعائر الأخرىٰ ـ سلبية فهذا ليس ذنب الدعاء، بل بسبب الجهل والغفلة وبهما يمكن تضييع أي نعمة من نعم الله وتحويلها إلىٰ وسيلة لإتلاف الوقت وتضييع العمر.

إذن فدعاء الندبة ليس وسيلةً للتخدير ولا عاملاً للوقوف والجمود بل

هو سبب للتطور الفكري وتعبئة الطاقات والتحرك والسعي؛ ويقلل كثيراً من ثمار الدعاء مَن يقول إن ثمار مجالس دعاء الندبة أنها تصد الشباب عن الذهاب إلىٰ مراكز الفساد الأخلاقي والاشتغال بما يُسمى بالترفيه السالم وما هو بسالم؛ كلا فدعاء الندبة يهدف إلىٰ جعل الشباب يبادرون إلىٰ القيام ـ أيضاً ـ بإغلاق تلك المراكز الإفسادية، ويربيهم ليصبحوا مجاهدين آمرين بالمعروف وناهين عن المنكر منسجمين فيما بينهم ومتحدين ومنظمين ومدافعين عن الإسلام.

وإذا لاحظتم أحياناً ظواهر البعض من قليل الاطلاع والمعرفة؛ فلا تعمموا أوضاعهم علىٰ الجميع ولا تحملوا دعاء الندبة مسؤولية جهلهم وغفلتهم عن القيام بواجباتهم المهمة؛ بل اهتموا بأمر التوعية لكي تتحقق الاستفادة بصورةٍ أفضل من كل هذه الوسائل المتوفرة لتجهيز الطاقات الإنسانية؛ وليبادر العلماء والعارفون بالأهداف الإسلامية والأوضاع الاجتماعية بتوعية الناس عبر هذه المجالس؛ ويمتنعوا عن تلويث الدعاء بالأغراض الشخصية وما يثير التفرقة والتشتت؛ وليجتهد الجميع بإخلاص ابتغاء تطبيق أحكام الإسلام عملياً، ومجاهدة المعاندين وهداية المنحرفين؛ فإن إحياء السنن الإسلامية وإماتة سنن الكفر ومجاهدة سياسات الكفار التي تقترب من تحقيق مسخ اجتماعات المسلمين؛ هي أفضل الخدمات والوسائل للتقرب من حضرة ولي العصر ـ أرواحنا فداه ـ.

والحمد لله أولاً وآخراً

بتاريخ ١٧/ جمادى الأولىٰ/ ١٣٩٢ هـ. ق

لطف الله الصافي

الفهرس

الموضوع	الصفحة
مقدمة المترجم	٥
الدعاء	١١
دعاء الندبة	١٤
الإمام الصادق (ع) يندب الإمام المهدي (ع)	١٦
ـ قول السيد ابن طاووس	١٩
شبهات حول دعاء الندبة	٢٠
تنبيه مهم	٢٤
مناقشة الاعتراض الأول والإجابة عليه:	
اعتبار سند دعاء الندبة	٢٥
ـ أخبار «من بلغ» والتسامح في أدلة السنن	٣٢
مناقشة الاعتراض الثاني والإجابة عليه:	
علاقة إمام الزمان (ع) برضوى وذي طوى	٣٥
ـ ذو طوى	٣٧
ـ رضوى	٣٧
علاقة الإمام (ع) بذي طوى ورضوى	٣٩
ـ ملاحظة جديرة بالاهتمام	٤١

مناقشة الاعتراض الثالث والإجابة عليه:
دعاء الندبة وإمامة الأئمة الاثني عشر (ع) ٤٣
ـ توضيح آخر ٤٧

مناقشة الاعتراض الرابع والإجابة عليه:
دعاء الندبة وقضية المعراج الجسماني ٤٩
ـ نص الاعتراض ٥١
ـ الجواب ٥١
ـ كلام تحقيقي لأحد كبار أساتذة العلم والأدب ٥٢

مناقشة الاعتراض الخامس والإجابة عليه:
إمكانية نسبة الدعاء للأئمة (ع) ٥٥
ـ نص الاعتراض ٥٧
ـ الجواب ٥٧

مناقشة الاعتراض السادس والإجابة عليه:
دعاء الندبة وشبهة البدعة ٦١
ـ نص الاعتراض ٦٣
ـ الجواب ٦٣

مناقشة الاعتراض السابع والإجابة عليه:
دعاء الندبة وآية **﴿واجعل لي لسان صدق في الآخرين﴾** ٦٩
ـ نص الاعتراض ٧١
ـ الجواب ٧١

مناقشة الاعتراض الثامن والإجابة عليه:

القرآن الكريم وجملة: «وأوطأته مشارقك ومغاربك» ٧٥
ـ نص الاعتراض ٧٧
ـ الجواب ٧٧
ـ لطيفة قرآنية ٧٩

مناقشة الاعتراض التاسع والإجابة عليه:

دعاء الندبة وعلم النبي (ص) والامام (ع) ٨١
ـ نص الاعتراض ٨٣
ـ الجواب ٨٤
ـ السؤال ٨٥
ـ الإجابة ٨٥
ـ الوجه الأول ٨٦
ـ الوجه الثاني ٨٧
ـ الوجه الثالث ٨٧
ـ الوجه الرابع ٨٨
ـ الوجه الخامس ٨٨
ـ الوجه السادس ٩٠
ـ الوجه السابع ٩١
ـ آيات القسم الثاني ٩٢
ـ الحل الأول ٩٢
ـ الحل الثاني ٩٣
ـ الحل الثالث ٩٣
ـ الحل الرابع ٩٤
ـ الحل الخامس ٩٤
ـ الحل السادس ٩٥
ـ تحقيق حول حديث شريف ٩٥
ـ الجهة الأولى ٩٥

- الجهة الثانية ٩٦
- الجهة الثالثة ٩٦
- الجهة الرابعة ٩٦
- الجهة الخامسة ٩٦
- الجهة السادسة ٩٦
- الجهة السابعة ٩٧
- الحل السابع ٩٧
- حكمة عدم العمل بعلم الغيب ٩٨
- الجواب ٩٨

مناقشة الاعتراض العاشر والإجابة عليه:

دعاء الندبة وآية المودة ١٠١
- نص الاعتراض ١٠٣
- الجواب ١٠٤
١ - مكان نزول الآية ١٠٤
٢ - تفسير الآية ١٠٦
- التفسير الأول ١٠٧
- التفسير الثاني ١٠٧
- التفسير الثالث ١٠٧
تفسير أهل البيت (ع) ١٠٨
٣ - مقارنة تفسير الآية بالآيات الأخرى ١٠٩
٤ - روايات أهل السنة ١١٠

مناقشة الاعتراض الحادي عشر والإجابة عليه:

دعاء الندبة والعقل ١١٧
- نص الاعتراض ١١٩
- الجواب ١٢٠

مناقشة الاعتراض الثاني عشر والإجابة عليه:
معنى جملة «يا بن الطور والعاديات» ١٢٥
ـ نص الاعتراض ١٢٧
ـ الجواب ١٢٧

مناقشة الاعتراض الثالث عشر والإجابة عليه:
دعاء الندبة والكفر والشرك ١٢٩
ـ نص الاعتراض ١٣١
ـ الجواب ١٣١

مناقشة الاعتراض الرابع عشر والإجابة عليه:
دعاء الندبة وتجميد النشاطات الإسلامية ١٣٧
ـ نص الاعتراض ١٣٩
ـ الجواب ١٣٩
الفهرس ١٤٥